صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع الساحة رقم ٣٩
بالقاهرة
تليفون رقم ٤٢٩٩٢

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

تصدر كل أسبوعين مؤقتاً

بدل الاشتراك
مصر
٣٠ عن سنة كاملة
٢٠ عن ستة شهور
٦٠ عن سنة في الخارج
١ ثمن العدد الواحد

الاعلانات
يتفق عليها مع الادارة

العدد الخامس — القاهرة في يوم الأربعاء ١٩ ذو القعدة ١٣٥١ — ١٥ مارس ١٩٣٣ — السنة الأولى

بين السوامر والصحف

أسير الجبهار :

بين عشية وضحاها نزل صديقنا الأستاذ محمد توفيق دياب من قصر صاحبة الجلالة الصحافة، الى سجن الرجيم من سلاب الأموال وقتلة الأنفس. لأنه رأى رأياً في سياسة هذا البلد عن اخلاص وعقيدة فلم يقره عليه القانون القائم. وحاولت صاحبة الجلالة أن تعصمه من أمر القضاء بالرحمة، ومن تنفيذ الحكم بالعفو، ومن قسوة التنفيذ بالرجاء. فما رجعت بطائل. وظهر أن جلالة الصحافة كجلالة الملك: رواد في العين، ولا سلطان في الدين!!

إنا نؤمن بعدالة القضاء كما نؤمن بحكمة القدر: ولكن في السجن الموحش المظلم فُرجة قد ادخرها القانون لضحايا العدل؛ فاذا لم تتسع لأمثال دياب فلمن تتسع؟ أن الكاتب الذي يحرق مخه وعصبه ليضيء الطريق لشعبه، ويغذي حيوية قومه بعصارة عقله وقلبه، ولا يتغنى من وراء جهاده غير مرضات وطنه وربه، لجدير باحتمال قسوته اذا قسا، واغتفار زلته اذا زل.

ان خطأ الاجتهاد في الرأي لا يعتبر جريمة إلا في أصطلاح القانون الذي تسنه الحكومات له، فاذا ما اتسعت الصدور، أو تبدلت الأمور، عاد العمل بالقول المأثور: للمجتهد أجران اذا أصاب، وأجر اذا أخطأ. فاذا كانت جريمة الأستاذ دياب من النوع الذي يحرم هنا ويحل هناك، ويوجب العقوبة اليوم ويقتضي المثوبة غداً، فان شديداً على الضمير

فهرس العدد

ص
٣ بين السوامر والصحف
٥ المقرد : لاحمد حسن الزيات
٧ تراثنا القديم : للاستاذ أحمد أمين
٨ اسكندر يقتل صديقه . للدكتور عبدالوهاب عزام
١٠ بحر الهجر وملتقى الأوزان : للدكتور محمد عوض
١١ فلسفة برجسون : للاستاذ زكي نجيب محمود
١٥ ابن خلدون : للاستاذ محمد عبدالله عنان
١٧ أثر اللغة العربية في العالم الاسلامي: للمرحوم فروس
١٨ موسى بن شاكر : للاستاذ فدري حافظ طوقان
٣٠ مناجاة غير : للاستاذ محمود الخفيف
٣٠ في الليل : أمين عزت الخيري
٣٠ افلاطون، كل شيء : عبد الغني النشاري
٣٣ نظرات في الأدب الفارسي : للدكتور عزام
٣٤ الأدب الياباني : للاستاذ أحمد الشنتناوي
٣٥ قصة فيلسوف عاشق : للدكتور طه حسين
٣٩ الرياني : محمد كرديا
٣٠ غيرة : لمحمود محمد متنصر
٣١ أسرع كرة في العالم
٣٢ الانفلونزا أو النزلة الوافدة : للدكتور سامي كامل
٣٣ بعوث مصر الاسلامية وما تم بها: للدكتور حسين مؤنس
٣٣ مشاهد غربية : للاستاذ محمد أحمد الغمراوي
٣٨ المبارزة : للكاتب الروسي اسكندر بوشكين
٤١ فتح العرب لمصر : للاستاذ عبد الحميد العبادي
٤٢ على الاسلام : لمحمود أبو ريه
٤٢ المباراة : م . ع . م

طبعت بمطبعة فاروق، ٢٩ شارع الفجالة بالقاهرة

أن يعامل فى سجنه معاملة الجناة والعصاة . فيعيش فى غير شكله ، ويشتغل فى غير شغله . ثم يحرم لذة الجسم فلا يستريح . ومُتعة الروح فلا يقرأ ، وحق المريض فلا يعالج .

درس فى الإمساء :

زار صاحبا الجلالة الايطالية واديا الحبيب فحلا فى بوجه حلول السعادة ، ونزلا من أهله منزل الاجلال ، وأفاضا على عاصمته وصعيده غمراً من سراوة الملك ، ونبالة الخلق ، ثم اختصا فقراء الاسكندرية بقرابة الف جنيه على ما روى المقطم ، فكان هذا العطف السامى موضعاً للتفسير والتأويل ، ومثالا لاختلاف العقول فى الاستنباط والتعليل ، فمن قائل إن صاحب الجلالة أراد تعميم الاحسان فى أجناس بنى الانسان ، والاسكندرية شبه دولية ، ومن قائل إنه أراد تخصيصه ، وكثرة الجالية الايطالية ، تنزل بنوع الاسكندرية . والأمر فى كلتا الحالين مثل فى شرف الغاية ، لأن مبعث التعميم عاطفة الانسانية ، ومبعث التخصيص عاطفة الوطنية .

كلام طرآنى :

ذكرنا فى معرض الكلام عن أسلوب الأستاذ محمد بك مسعود أنه (منذ توفر على محاكاة الأستاذ وحيد فى تحقيق اللغة ، ومباراة شيخ العروبة فى تمحيص التاريخ ، بدت على أسلوبه الصحيح أغراض الغرابة التى تلازم اللغويين ، والاعتماد الذى يساور العلماء)

وهـــذا الكلام كما ترى نزيه القصد برىء الدلالة . ولكن الاستاذ وحيدا وريث العجّاج ، وخليفة الزجّاج قد طوع لنفسه أن يرد عليه فى الأهرام بهذا الرد فقال :

« جاء فى مقال للاستاذ الكبير المفضال محمد مسعود هذا اللفظ « طرآنى » فقال له كاتب فى صحيفة أغربت فى الكلام إغراب وحيد وشيخ العروبة (يعنى برهان العلم والأدب احمد زكى باشا)

« وإنى أقول للكاتب الذى رأى القارئون عدوته — بفتح العين واسكان الدال — ليس الطرآنى من غرائب الكلام . وكنى قولى له أنك تراه من بلاغة اللغة فى كتاب الزمخشرى « أساس البلاغة » الذى قيل فيه : ومن خصائص هذا الكتاب تخير ما وقع فى عبارات المبدعين . قال الامام الزمخشرى فى أساس البلاغة : رجل طرآنى . وحمام طرآنى . لا يدرى من أين جاء . وكلام طرآنى الخ .

« اجزنى بقولى لكاتب ذى عدوه » ما قاله الاعرابى : ليس هذا بغريب ولكنكم فى الأدب غرباء .

ونحن نقول فى دورنا للأستاذ الجليل : لقد اعربنا فلم تفهمونا وأفصحنا فلم تفهموا . فاذا كنا فى الأدب غرباء ، فأنتم فى اللغة دعباء . أليس كذلك ؟

وهذا أيضا !

أخذ صديقنا الأستاذ احمد أمين على بعض كتابنا أنهم اذا تناظروا تخاصموا ، واذا تناقشوا تشاتموا ، ونسى أن يقول كذلك إنهم اذا نقدوا تلمسوا أسبابا للنقد تدل على سوء القصد ، وأحدث الأمثلة على ذلك أن الأستاذ (ع . ع) وهو أديب نابه لا يُتهم فى علمه ولا فى فهمه ، قد كتب فى البلاغ بمناسبة ضحى الاسلام يقول مانصه : إن أدباءنا قد استمرأوا (مائدة العراق) فهم اذا كتبوا فى الأدب كتبوا عن العراق ، واذا بحثوا فى العلم بحثوا فى العراق ، ثم نعى على صاحب ضحى الاسلام أن يغفل مصر ، وفيها أنشىء الأزهر ، واليها هاجر العلماء . ولو قرأ الأستاذ الكتاب لوجد فيه فصلا عن مدرسة الأسكندرية . بل لو قرأ المقدمة لوجد المؤلف يقول : (عنيت بضحى الاسلام المائة سنة الأولى للعصر العباسى) وفى هذه المائة سنة لم يكن أسس الأزهر ولا سقطت بغداد ! ومن الغريب أن يقول الاستاذ للمؤلف : إن طول النظر مرض ذكرته الاطباء . وهو يعلم أن قصر النظر كطوله سواء بسواء !

العدد الأول من الرسالة

اضطررنا لشدة الطلب على هذا العدد أن نعيد طبعه ، وهو يطلب من الادارة قريباً .

خواطر وصور

المتردد

أعرف رجلا يعيش رخي الصدر آمن السرب في دار بهيجة وأسرة حبيبة ورفقة مخلصين، تلقى ذات يوم كتاباً من صديقين يدعوانه الى رحلة خارج القطر كانت منذ زمن طويل متجمع خاطره ومهوى فؤاده، فوجد من فرصة الفراغ وجمال الربيع ووفاق الخليط مغرياً جديداً بها، ودافعاً شديداً اليها، وكان صديقاه يطلبان جواباً حاسماً سريعاً. فوقف الرجل بين الأمرين وقفة المتخير المتحير. لا يدري أيظل في هذا المكان المحبوب الذي يشقيه، أم يرحل الى ذلك البلد الجميل الذي يستدعيه؟

بدأ تردده هادئاً مقبولا كهدهدة المهد، ثم مالبث أن عاد مزعجاً مملولا كاضطراب البحر. كان ترجحه بين الاقامة والظعن أشبه بترجح الزورق على الماء الهادئ يدفع الى الأحلام والأوهام. والمتردد واسع الخيال كثير الفروض. فأخذ يقلب الأمرين في خاطره: يوازن بينهما منفردين، ويتمناها مجتمعين. ويطمع أن يدركهما متعاقبين.

أزف الموعد والصديقان ينتظران الجواب إيجاباً أو سلبا. فلابد أن يخرج من عماية هذه الحيرة ليكتب اليهما، جلس جلسة الكاتب وأخذ أهبته للكتابة. ولكنه لم يكد يقر على الصحيفة يده حتى ساوره الشك فأمسك! وأخذ فكره يتنقل بين المكانين، ويفاضل بين المغنيين، حتى انتهى به التردد الى ايثار البقاء.

آثر البقاء لأن الصديقين ربطاه بعدة خفيفة، لا بكلمة مريضة، ولأن في المتردد جرثومة من جراثيم الكسل: المترددون أميل الى الكف والاحجام، دون العمل والاقدام.

ذلك الى أن مخيلته الخصبة قد أنبتت له من الذرائع والأسباب ماوافق هواه: كيف يصدف عن مسرة هادئة أكيدة، الى أخرى جديدة غير أكيدة؟ انهم يمتدحون ذلك البلد لطيب هوائه وجمال مناظره، ولم يعلموا أن في الرحلة اليه والحلول فيه اضرارا تخاف وتحذر! أين يجد ما يعدل زوجته العزيزة وداره الجميلة وحديقته البهيجة؟ لقد أصبحت هذه الثلاث أجمل في نظره وأجمع لخيره منها قبل ذلك!

أليس من الحق والجحود أن يغمط الانسان مثل هذه السعادة؟ على أن هذا البلد بعيد الشقة، ولابد للراحل اليه أن يبيت ليلة في القطار على فراش لا وثير ولا وطيء، أو يعبر البحر متعرضاً لدُواره وأخطاره، واذا أصابه مرض في الطريق أو في الفندق فماذا تكون عاقبة أمره؟ ذلك فضلا عن الغذاء الدنيء والمسكن الوبيء والعناء المبرّح.

أجمع صديقنا في الأمر رأيه، ووطن على البقاء نفسه. فكتب الكتاب بالرفض ودفعه الى الخادم ليحمله الى مكتب البريد القريب، ولكن الخادم لم يكد ينطلق بالكتاب حتى تحرك الشك في نفسه. وتغير المنظر الماضي في عينه، فكأنما سحر ناظره. أو تبدلت مشاعره!

ذلك البلد الذي استخف به منذ قليل تجلى لعينيه في صورة جذابة أنيقة، وتلك الأحاديث العجيبة التي سمعها عنه تواردت على ذهنه تباعا منمقة الحواشي بسحر جمال المفقود، وحب استطلاع المجهول. ثم تمثلت أمام عينيه فوائد تلك الرحلة وملذاتها. فعاد باللائمة على نفسه! كيف عميت بصيرته عن هذه المنافع جمعاء؟ وكيف اعتاقه عن هذا الأمر مئونة الانفاق والنصب؟ إن متاعب السفر هي الصحة والقوة والحياة! ولاشيء أذهب للعمر وأقتل للمرء من أن يظل قعيد بيته مخلداً الى عيشة رغيدة وادعة، وحياة متشابهة ملة، تلك فرصة ما يحسب الدهر بمثلها يجود!

رحلة ممتعة مفيدة ! وإخوان صدق ملئوا طرفا وعلما ! ان ذلك الرفض ضرب من البله والجبن !

تحول ذلك التوبيخ أسى وحسرة ، وبلغ به الحنق والشوق والخجل حد الهياج والقلق ، فأهوى بيده الى الجرس ، وصاح بأحد الخدم أن يرد عليه الكتاب وحامله ، فقال له : أن الخادم ياسيدى انصرف الى وجهه منذ ربع ساعة !

فارتد الرجل كاسفا حزينا ، وانقلب ماحوله مظلما قبيحا ، واستولى الضجر على نفسه ، وأصبح بيته الجميل الرحب أضيق فى عينيه من كفة الحابل ، ثم مالبث أن عاد الى نفسه وأخذ يفكر فى جواب الخادم ، فقرر أن المسافة الى مكتب البريد يقطعها الخادم راجلا فى ربع الساعة ، فاذا قطعها هو على سيارة استطاع أن يوافيه قبل أن يضع الكتاب فى صندوق البريد .

وما هو إلا رجع البصر حتى انطلقت به السيارة يشق صوتها المزعج زحام الطريق ؛ ولكنه لم يضع قدمه على عتبة البريد حتى كان الخادم خارجا منه وقد أنجز عمله ! . بهت صديقنا وكاد يستسلم لليأس لولا أن مر ذكر التلغراف على خاطره ، فبرقت أساريره وقال : إن الرسالة البرقية تصل قبل الكتاب فتنسخه . ثم أخذ طريقه الى مكتب التلغراف وبدأ يكتب الرسالة ، ولكنه ما بلغ الكلمة الرابعة حتى جمدت يده على الورقة ! قال فى نفسه : إن الرسالة البرقية كالكلمة الملفوظة اذا قيلت فلن ترجع ، وسأكون بها مقيدا مأخوذا . ألقى القلم وخرج من المكتب يتنسم الهواء ! واخذ يمشى أمام الباب ذهابا وجيئة وهو يسائل نفسه : أيكتب أم لا يكتب ؟

دقت الساعة دقتين فارتعد وقال : مالى أتردد ؟ يجب أن أقطع الرأى ، فان الوقت وإن طال لابد المطال . ثم فكر وقدر ، فجاء برأى خليط مبهم لم يلبث أن نزل عنه ، وظل واقفا يتصفح وجوه الآراء ليرى الرأى القاطع نصف ساعة كان فيها فريسة الهم والضجر !

إستفاق من نفسه هذا الضعف الشديد ، فاقتحم المكتب ، وأتم الرسالة ودفعها الى العامل وهو يقول فى نفسه : سأتبعها بأخرى اذا بدت لى فى الأمر بداءة .

ثم انكفأ راجعا الى بيته يستعد ويتأهب ! وأقسم أن منظر ذلك البيت الذى يريد أن يفارقه غدا يحيى فى مخيلته صورة رائعة الجمال شديدة السحر . وان زوجه وكتبه وأزهاره وأشجاره ستملك عليه وجدانه . فلا يمنعه الخجل أن يصبح باكيا ما أمر وناقضا ما أبرم !

لعل فى القراء من يحمل وصف هذا الرجل على المبالغة ، ولكنى أؤكد لهم أن مكانه من الصدق مكان صورته الشمسية .

ان التردد مرض من الأمراض لا يؤبه له لندرته . يصيب المرء فى حياته العملية ، فيغل يده ، ويشل عقله ، ويتركه فريسة للالم من ضعفه ، والخجل من صحبه . تظهر أعراضه فى صغار الامور وكبارها ، فيكون فى انتقاء الثوب ، واختيار الحالة ، وفى الاقدام على الزيارة القصيرة ، والرحلة الطويلة ، ويدخل فى لذات الرجل وأعماله ، كما يدخل فى إدباره وإقباله .

* * *

جرت بين هذا الصديق نفسه وبين زوجه هذه المحاورة منذ اسبوع ، فأنا أنقلها اليك بنصها لتزداد به معرفة .

قال وهو يهم بالخروج إلى مكان عمله :

— زينب ! أتشيرين على بأن آخذ مظلتى ؟

— افعل ياعلى ماتشاء .

— أتظنين أن السماء تمطرنا اليوم ؟

— وما يدريني ؟

— آخذها والسلام !

— حسناً تفعل .

— ولكنها تضايقنى إذا لم تمطر السماء .

— دعها اذن !

— ولكن المطر اذا نزل بلل طربوشى وثوبى .

— خذها إذن !

— ماهذه الحماقة ؟ وما هذا التردد بين الأمر والنهى ؟ ليس للمشير إلا رأى واحد ! فهل ترين أنى أحسن اذا أخذتها ؟

— نعم !

— سآخذها إذن .

— ولكن الهواء دافىء ، والسماء مصحية ، وأخشى إذا دام الجو كذلك أن أذهل عنها فأفقدها ؛ سأتركها قطعاً !

ثم سار يريد الخروج فلمحها معلقة على المشجب فأخذها وهبط السلم ذاهلا ، متباطئاً ، حتى بلغ الباب فدفعها اليه .

أحمد حسن الزيات

مَـــارِعُ الأذهَـــان

تراثنا القـــديم

للأستاذ احمد أمين

خبران أثرا فى النفس أبلغ التأثير . وآثارا فى القلب كوامن الأسى والأسف .

أولهما أن أديبا كبيرا ، وخطيبا خطيرا طلب من احدى المكاتب القاموس المحيط للفيروزابادى ، فأرسلته اليه ، فاستقاله اياما ثم رده شاكرا لانه لم يستطع أن يعرف طريقة الكشف فيه . وانما استطاع فلا يفهم مايقول ، ولا يتبين مايشرح . لذلك يعتذر عن شرائه ويطلب بدلا منه معجما من المعاجم الحديثة ، كأقرب الموارد ومحيط المحيط والبستان ، لسهولة الكشف فيها ، ووضوح القصد من معانيها .

والثانى أن مجلسا من مجالس المديريات قرر انشاء مكتبة يتردد اليها طلبة المديرية ومثقفوها ، وعهد الى بعض رجاله اختيار الكتب الصالحة فلم يختر فيما اختار كتابا قديما كالقاموس المحيط ولسان العرب وتاريخ الطبرى وتاريخ ابن الأثير والأغانى والعقد الفريد ونفح الطيب ، وانما قصر اختياره على ماأنتجه الأدباء المحدثون من روايات وقصص وتاريخ حديث ، وأدب من الوزن الخفيف .

راعى مافى هذين الخبرين من دلائل مؤلمة : ومايحملان من نتائج خطيرة ! ان دلالة الخبرين أن تيار الفكر إنما يسير نحو الثقافة العصرية ، وان المثقفين انما يعتمدون على ماتخرجه المطابع من آثار الثقافات الأجنبية ، فاما تراثنا القديم ومافيه من ثراء ضخم فتنبو عنه أذواق الناشئة ومن يقودهم ويختارلهم . ولا يقبل عليه الا المستشرقون وأمثالهم من علماء قليلين يسيرون نحو الفناء ، دون أن يخلف من بعدهم خلف يقوم على هذا التراث فيحفظه ويستثمره .

ولهذه الظاهرة أسباب أهمها :

أن هذه الكتب جارت عصرها ولم تجار عصرنا ، فالتعبير معقد ، والمعنى غامض ، والتأليف مشتت ، والمصطلحات جامدة ، والأمثلة واحدة فقطع هذا كله الصلة بين القديم والحديث ، ولم يستطع أن يتفهم هذه الكتب القديمة الا من نشأ عليها ، وانفق أكثر العمر فى فهم عباراتها ، وحل معمياتها . وكثير منهم وقف عند ألفاظها ومصطلحاتها ، ولم يسعفه الزمان بالتغلغل فى أعماقها ، واكتناه أسرارها واستخراج كنوزها . فلما نشأ الجيل الجديد وقد تعلم أول أمره فى رياض الأطفال ، وأسلمته هذه الى مدارس ابتدائية وثانوية يجتهد مدرسوها أن يعلموا على أحدث طرق البيداجوجيا ، ويقرأ تلاميذها فى كتب ألفت على غرار الكتب الأوربية فى الشكل والموضوع ، أصبح الخريجون لا يربطون جديدهم بقديم أباتهم ، وصارت الكتب الأوربية أشهى الى نفوسهم وأقرب الى عقولهم من كتب الأدب العربى والفلسفة الاسلامية ، وكتب القانون الفرنسى أحب اليهم من كتب الفقه الاسلامى وهكذا . وهم اذا نظروا فى هذه الكتب العربية مرة تراها وضحكوا منها ! فاذا وقع نظرهم فى الفقيه على تحديد ماء الطهارة بأنه عشر فى عشر بذراع الكرباس ، قالوا مالنا ولذراع الكرباس ؟ إنما نعرف الذراع البلدى والذراع المعمارى ، واذا رأوا نظام أخذ العشر قالوا ماذا يقابل ذلك من نظام الضرائب والجمارك ؟ وإذا نظر الأطباء فى كتاب القانون لابن سينا وقفوا امام أحاجى لاطاقة لهم بها . واذا نظر الأدباء فى الأغانى والعقد وأمثالها رأوا شرا كثيرا وخيرا قليلا ! وكان مافهموا أقل مما لم يفهموا .

الحق أن هذه مشكلة كبيرة تحتاج فى علاجها الى سيرة الحكماء ، وأن مافى كتب أسلافنا من ثروة يحتاج الى عقول كبيرة تضع منهجا قويما للاستفادة منها .

ونحن بين اثنين : اما أن تخصص منا طائفة صالحة لترجمة ثروتنا القديمة الى لغة العصر وروح العصر وأسلوب العصر ، فيستطيع ناشئتنا أن يضعوا أيديهم على تراث آبائهم ، واما أن يثقف أكبر عدد ممكن بنوع من الثقافة الشرقية القديمة ، فضلا عما عندهم من الثقافة الحديثة ، فيجمعوا الى مواردهم الأجنبية الموارد العربية ، ويخرج تاجهم منشعا بالروحين ، مستمدا من الثقافتين .

فان لم يكن هذا ولا ذاك خشيت بعد قليل أن تصبح كتبنا القديمة غير صالحة الا للأرضة تعيث فيها والتكبرت ينسج عليها ، ويكون شأننا معها كما قال أبو العلاء :

سيسأل قومى ما الحجيج ومكة ... كما قال قوم ما جديس وطاسم

اسكندر يقتل صديقه!

للدكتور عبد الوهاب عزام

اسكندر العظيم يثبت عرشه وسلطانه وهيبته وكبرياءه في مقدونية واليونان، ثم يتوجه تلقاء آسيا.

الفريقان من اليونان والفرس يلتقيان على نهر (كرانيكوس) الصغير عام أربع وثلاثين وثلاثمائة. فيتاح لاسكندر أول فتح في آسيا، وتخضع له الميدان حتى سرديس. فقد دانت له آسيا الصغرى كلها.

ثم يتقدم صوب الجنوب، فيجتاز طوروس ويسير تلقاء الشام. واذا جيش دارا، الجيش اللهام الذي لا يغلب من قلة رابض في طريقه. وفي سهل إسوس الضيق بين الجبال والبحر تزدحم مئات الألوف في المعترك، ويسقط في البحار مائة الف من الفرس، ويفر دارا ويهرب معسكره، وتؤسر أمه وزوجه وابناه.. فانظر اسكندر قد قهر الملك الأعظم، ملك الفرس الذين طالما فخر اليونان بأنهم احتملوا صدمتهم، وردوهم عن بلادهم!!

يتقدم الفاتح العظيم فيقهر مدن الشام، وتقاومه صور وتتحدى جبروته وسلطانه. ثم تخر امامه بعد حصار سبعة أشهر، فيقتل منهم ثمانية آلاف، ويؤسر ثلاثون ألفا فيباعون عبيدا، ويصلب على القلاع ألفان عبرة ونكالا! ذلكم اسكندر الفاتح العظيم، وذلكم جزاء من يقف في سبيله!

ويفتح اسكندر مصر عام اثنين وثلاثين وثلاثمائة. ويرفع نسبه الى أمون. ثم يجمع جنده ويسير الى العدو الأكبر الملك الأعظم. يجتاز الفرات ودجلة الى حيث يعسكر دارا. وهنالكم على مقربة من أطلال نينوى العظيمة التي تندب مجد آشور الغابر، وعلى سبعين ميلا الى الشمال والغرب من مدينة اربيل، ليس بعيدا من ملتقى عبد الله بن علي العباسي، ومروان بن محمد خاتمة الخلفاء الأمويين، حيث سقطت دولة وقامت دولة! هنالكم تراءى الجمعان، وعسكر اسكندر تجاه دارا.

ويشير (برمينيو) على الفاتح المقدوني أن يهاجم عدوه ليلا. فيأتي مجد اسكندر وكبرياؤه، فيقول له: أنا لا أسرق النصر. ثم يلتقي الجمعان. وتدور الدائرة على دارا. وجنوده، فيفر صوب المشرق. اراأيت بابل العظيمة مدينة السحر والعلم؟ ها هي تفتح أبوابها لاسكندر ويباركه كهنتها. ويطوي الملك الشاب المراحل الى سوس واصطخر حاضرتي الفرس. لا يصمد لمدينة الا فتحها، ولا يعمد لجيش الا مزقه.

تمتد الفتوح والآمال والنشوة والكبرياء باسكندر الى ما وراء النهر في طريقه شطر الهند، بعد أن طارد دارا حتى عثر به في الطريق قتيلا.

اسكندر العظيم في مدينة سمرقند عام سبع وعشرين وثلاثمائة. قد طوى المراحل والممالك ما بين مقدونية ونهر سيحون. ينعم هنالك بالشباب والظفر والملك الفسيح، والكنوز التي لا تحصى، والجند الذي لا يعد. اسكندر الآن أعظم ملك في العالم كله!

* * *

ويدعو أصحابه وقواده الى مأدبة في سمرقند. فيأكلون ثم تدور الكأس حتى يثمل القوم أو يكادون، ثم تترع للملك المظفر كؤوس من الاطراء والاعجاب والاجلال والاكبار. ويغلو المتملقون المعجبون فيرفعونه فوق الأبطال جميعا. ويدعون أن أعماله المعجزة لا تكون الا عن نسب آلهي، بل يرفعونه الى مستوى الآلهة كهرقل. ويشارك الملك الشاب في اعظام مآثره والاعجاب بها، ثم لا يقنع بما نال، فيجعل لنفسه ما نال أبوه من ظفر في آخر عهده، ويغض من فيليب وان كان أباه!

يسخط المقدونيون من الزراية بطلهم القديم، ولكنهم لا ينسون. و(كليتوس) رابض ينظر الى اسكندر وما دحيه ساخطا محلقا. كليتوس أحد قائدي الفرسان، كليتوس الصديق القديم أخو (لانيس) حاضنة اسكندر التي قتل اثنان من أبنائها تحت رايته، كليتوس الذي نجى اسكندر في معركة كرانيكوس

حين أبصر أحد الفرس يهوى بسيفه الى الملك من خلفه فسارع كالبرق فضرب السيف فقده دون رأس الملك . كليتوس هذا لم يستطع صبرا على الغض من فيليب ! قال كليتوس: ما لهؤلاء المادحين يضعون أقدار الغابرين ليرفعوا عليها مجد الحاضرين ؟ ان فيليب كان عظيما ! — ثم تأخذه الحدة فيقول: « ليست مآثره دون مآثر ابنه ! لا . ان مآثره لأعظم . فقد خلق الرجل لنفسه ملكا وجيشا . وانما صلت أيها الملك بما أورثك فيليب من ملك ممهد وجند مدرب . انما ظفرت بفضل هؤلاء المقدونيين الذين تحقرهم اليوم وتقدم الفرس عليهم . الم تقتل برمنيون العظيم ؟

هاج الحاضرون وقذفوا كليتوس بالجدل والتوبيخ . وثار ثائر اسكندر الفتى الفاتح الذى سخر ملك مصر وبابل وأشور وفارس ، اذ قرعت أذنه لأول مرة نأمة ناقد يعترض كلامه ويرد عليه دعواه . غضب اسكندر وصاح بكليتوس يزجره ويجادله ، وانحاز الحاضرون للملك المعجب بنفسه ، وكليتوس كالأسد يزمجر ويرد الكلمة بمثلها ، ثم ينتفض قائما ويصيح مادا يده الى الملك : « اذكر أن حياتك دين لهذه اليد التى نجتك يوم كرانيكوس ! وأصخ لصوت الحق الصراح ، أو تجنب دعوة الأحرار الى مأدبتك ، واختص العبيد بصحبتك !

اهتاج اسكندر لموقف كليتوس ولذكرى كرانيكوس وبرمنيون ، فنهض يتحسس خنجره ، فاذا الخنجر بعيد فدفعه أحد الحاضرين . فينادي الحرس مغضبا هائجا ويأمر أن ينفخ فى الصور ايذانا للجند ، فما اطاع أحد أمر الملك الهائج النشوان ، وتقدم نحوه بطليموس (وبردكاس) القائدان الكبيران فأحاطا به وأمسكا يده برفق بكتمان ثورته . ويكبر ان حدته ، ويحيط آخرون بكليتوس يخرجونه من الباب ، فيأبى أن يخرج فيعترف بأنه أساء واعتدى . ويقول اسكندر : « وا أسفا ! إن قوادى قد غلوني كما فعل بوس بدارا . وأنما لى من الملك اسمه . ويتقدم اسكندر تلقاء كليتوس ، ولا يجرؤ القواد أن يقفوه قسرا ، ثم ينقض كالصاعقة فينتزع حربة من أحد الجند فيغمدها فى صدر كليتوس الصديق القديم !

يرتاع الحاضرون . ويفيق اسكندر من نشوته وثورته وعنجهيته . فيفتح عينيه فاذا كليتوس طريح يضطرب فى دمه .

خرج اسكندر من الباب يعدو الى فراشه ، فارتمى عليه ثلاثة أيام لا يأكل ولا يشرب ، يبكى بدموع غزت على الخطوب الشداد ، وغلت فى الحوادث السود . ويتمادى به البكاء ، وكلما كفكف دمعه تمثل له صديقه طعينا بيده . ويلعن نفسه نادما . ويهتف باسم كليتوس وأخته لانيس . ثم يقول : ويل ! أنا الغادر الكنود . لقد جزيت كليتوس ولانيس شرا بما أحسنا الى . لست بعد اليوم جديرا بالحياة .

ويجتمع اليه صحبه يعزونه ، ويسوغون ما عمل . فلا يزداد الا حزنا واكتئابا وندما وأسفا . ويجتمع الجند المقدونيون فيجمعون على أن كليتوس قتل بحقه . وأنه ينبغى ألا يدفن . فيغضب اسكندر ويقول : كلا ! انه سيدفن بأمرى . ويأتى الكهنة فيقولون : ان الملك لم يقتل صديقه بيده ، ولكنها نقمة من الاله (ديونسوس) أجراها على يد الملك انتقاما لنفسه بما حرم القربان فى هذه المأدبة . ثم يأتى الفيلسوف (أنكشرخوس) فيقول : ايها الملك ان الذى أنت فيه لعجز . وانك أيها الملك العظيم والفاتح القاهر لجدير بأن تحل وتحرم وتحق وتبطل بارادتك لا أن تخضع للقوانين التى سنها الناس . ثم يأتى كلستنس الفيلسوف فيجهد أن يهون على الاسكندر ما فعل .

فارق اسكندر مضجعه بقلب كليم اجابة لنصحائه وإجابة لواجبه فى هذه البلاد النائية . ولكن أحسب الجرح قد ذهب مع اسكندر الى قبره !

اسكندر العظيم لم يعظم عليه مطلب ، ولا بعدت على همته غاية ، ولا ثبتت فى طريقه دولة ، ولا وهن قلبه فى سلم ولا حرب ، ولكن اسكندر الفاتح القاهر ، والملك المسلط ، لم يحتمل وخزة واحدة من وخزات الضمير ، فخر كالطفل يبكى ويتململ . وكاد يبخع نفسه فرارا من الندم !

ان عذاب الضمير هو العذاب الأكبر ، ولكن لا يعرفه الا ذوو الضمائر ، وقليل ماهم !

لله در كليتوس ! لقد ذهب مثلا فى الوفاء ، وابن فى الدنيا الأوفياء ؟

ولله در كليتوس صريع الوفاء ! ولله در اسكندر صريع الوجدان ! ؟

مجمع البحور وملتقى الأوزان

للدكتور محمد عوض محمد

نحس بنا . كلما دخل الأدب العربي طور جديد . أو ظهرت فيه بدعة جديدة . أن نقف لحظة لنحقق أمر هذا الطور الجديد . وهذا المنهج الذي يريد بعض الأدباء أن ينهجه . ومن حقنا أن نكون الحق الذي يجب أن يكون في تقدم أبدا وفي تحول . لكن يجمل بنا من آن لآن أن نقف قليلا لنحلل هذه الاتجاهات الجديدة . لكي نكون على بصيرة من أمرنا ، ولكي نمشي على علم وهدى . فان بعض السبل الجديدة يؤدي الى الخير . وبعضها لا يفضي إلى شيء .

وقد ظهر في عصرنا هذا ضرب جديد من الشعر . لم يعرفه الأوائل ولا الأواخر . ولا نعرف في شعراء الشرق من عرب وترك وفرس من نحا هذا النحو . ولا في شعراء الغرب في الأدب الأنكليزي والفرنسي والألماني . من له شأن وخطر . من سلك هذا السبيل . وإن كان بين قراء (الرسالة) من يعرف شاعرا ذا شأن طرق هذا الباب من قبل . فقد يسرنا أن نعلم عنه ما جهلناه .

أما هذا الضرب من القريض — وقد سميناه بمجمع البحور — فانه يسوغ للشاعر في المنظومة الواحدة والموضوع الواحد . أن يجمع بين ماشاء من بحور الشعر . بلا قيد ولا شرط : فينتقل كما شاء وشاء له الهوى من وزن إلى وزن بلا سبب ظاهر . وبدون أية قاعدة معلومة أو غير معلومة . فيبدأ منظومة بالخفيف مثلا . ويمضي فيه الى بيتين أو الى أبيات . ثم يخرج على البسيط فينظم فيه أيضا بيتين أو ثلاثة . ثم يميل فجأة الى الرمل ثم الى الكامل . وهكذا لا يزال ينتقل من بحر الى بحر . ويثب من وزن الى وزن . والمنظومة واحدة والموضوع واحد .

ليس من شك في أن هذا الضرب من الشعر جديد . ولو أن المتنبي . وهو الآمر الناهي في مملكة القريض . قيل له إن فلانا ينظم القصيدة الواحدة فيجعلها من بحور شتى . لقال لمحدثه : « ياهذا إن شاعرك مثله كمثل الطاهي الذي يخلط الحلو بالحامض . والمانع بالجامد . والرطب باليابس . والصاب بالشهد : ثم يرجو بعد هذا أن يكون فيما طباه شفاء وغذاء . »

مفهوم أن يكره الانسان التقيد بالقيود من أي نوع كانت . والنفس تثور من آن لآن . تحاول تحطيم السلاسل التي تقيدها وتمنعها من ارتياد سهل الحرية عذبا نميرا . وقد رأينا منذ زمن كيف ابتدع بعض الشعراء نظم القريض مرسلا . من غير قافية ثابتة : لكن مع الاحتفاظ بالوزن . وكان لهذا الضرب من القريض أنصاره . الذين نادوا في الناس بأنه سيرقى بالشعر العربي الى سماء ما طاولتها سماء . ثم لم تلبث تلك النار أن باخت . وتلك الأصوات أن خفتت . وأصبحنا اليوم وأكثر الأدباء متفق على أن إرسال القافية لا يلائم الشعر العربي : فلم تكد تسع بتلك الحرية حينا حتى عدنا بأنفسنا طائعين إلى حمل السلاسل والأغلال . مضحين بتلك الحرية العروضية التي لم تنتج لنا إلا كل فاتر تمجه النفس .

ثم جاء بعد هذا بدعة أكبر وأخطر . وهي بدعة (مجمع البحور) التي وصفناها . ومما يؤسف له أن يكون شاعر من أجل الشعراء شأنا وهو « شوقي » على مابه من قدرة ومكانة . وهو الشاعر ذو النفس الطويل . الذي ما كان يعييه أن ينظم فيطيل ماشاء الأطالة . وهو الذي نظم (صدى الحرب) و (مقدوديا) و (نهج البردة) . انه يرغم هذا رأى ألا يلتزم وزنا واحدا في رواياته التي كتبها أخيرا . فأحيانا كان شخص من أشخاص الرواية يسأل السؤال في وزن . فيرد عليه بوزن آخر . وكثيرا ما ينتقل المتكلم الى وزن جديد . وموضوع الحديث لم يتغير .

لقد قيل ان شوقي في ذلك أسوة بكبار الشعراء الروائيين أو القصصيين . . وهذا ليس بصحيح . فان جميع روايات شكسبير من وزن واحد وهو المسمى Iambic Pentameter وملحمتا هوميروس كلتاهما من بحر واحد . والفردوس الضائع لملتون كلها من وزن واحد . والشاهنامه والمثنوي كلها ذات وزن واحد . وبرغم ما قيل وما يقال عن روايات شوقي . فان كثيرا من الناس يقر بأن هذا الاكثار من الأوزان قد أنقدها قسطا كبيرا من الحسن .

ونحن نسوق هنا على سبيل المثال قطعة من (قمبيز) وهي الرواية التي تفوق صواحبها في هذا الأمر .

جاء في المنظر الأول من الفصل الأول الحوار الآتي بين تاتاس وعمها فرعون (أمازس) :

تاتاس : تغريت يأبي المسير هبالي ... مكانها منك يا أمازس

فرعون : أنت التي تذهبين

تاتاس : ... لم لا ؟

فرعون : ... هذا هو النبل يا تاتاس(١)

بخ بخ بنت أخي (٢)

تاتاس (في استنكار) : أنت يا ... قاتل عمي

لا . . أبي يأبى وأمي (٣)

في هذا الحوار القصير الذي يتألف من ثلاثة أبيات . ومصراع

واحد . ثلاثة أوزان (١) مخلع البسيط ومنه البيتان الأولان (٢) ومجزوء الرجز ومنه المصراع الذي يليهما . (٣) ثم مجزوء الرمل ومنه المصرعان الأخيران .

وقد يرى بعض الناس أن من الغلو في الجرأة أن يكون أحد المصراعين في البيت الواحد والثاني من بحر آخر . ولكن في الحق أن هذا هو التطور المنطقي لجمع البحور . فإذا كان مستحسناً أن يغير الإنسان الوزن بعد بيتين أو ثلاثة . فليس هناك معنى لأن يمتنع المرء عن تغييره في كل مصراع . بل وفي أقل من مصراع وقد فعل ذلك أحمد الأفاضل في الجزء الثالث من (لؤلؤ) في قصيدة من هذا النوع عنوانها (الشراع) جاء فيها :

وانتزع عنك كأس الليل ثوبا : (رمل)
شجبا (؟)
تحتك اللجة السحيقة تدوى (خفيف)
فوقك اللانهاية الأبدية (؟)
وأمامك الأفق البعيد يضلل (كامل)

والقارئ الذي يهمه هذا الضرب من الشعر يجب أن يرجع إلى هذه القصيدة لأنها خير مثال له بين أيدينا . ولولا ضيق المقام لتمثلنا بكثير من أبياتها .

وقد جاء في العدد الرابع من الرسالة منظومة للشاعر الفاضل إيليا أبو ماضي عنوانها الشاعر والسلطان الجائر . وقد أعجبنا ما فيها من خيال بديع . وكان افتتاحها بنوع خاص منبئاً بأن المنظومة من الدرر الغوالي . الآن هذه الدرر كانت ذات نظام مختلط إذ جعل الشاعر يغير من وزنها ست مرات أو سبعا . فلا تكاد الأذن تطمئن إلى نغمة . حتى يستبدل بها نغمة تخالفها وتغايرها . والذين اكتفوا بقراءة القطعة الأولى حكموا بأن القصيدة من أحسن الشعر . وأما الذين قرأوها إلى النهاية فقد أسف كثير منهم على أن الشاعر قد أفقد المنظومة حسنها لهذا الاضطراب في النظم : لأن لكل بحر أثراً خاصاً في النفس . وهذا التقلب السريع مما يزعج الخاطر . وينفر الأسماع .

لسنا بحاجة لأن نسرد للقارئ أمثلة أخرى نستدل بها على هذه الظاهرة الجديدة . التي بدت في كتابات بعض الشعراء . وليس من شك في أن (مجمع البحور) هذا سيكون شأنه شأن الشعر المرسل . سينادى به بعض الكتاب حيناً . وقد يستنجل أمره زمناً ما . ثم لا يلبث أن تخمد جذوته . ويذهب كما ذهب أخ له من قبل ؟

فلسفة برجسون

للأستاذ زكي نجيب محمود

ثورة على المادية

كان سبنسر المفكر الإنجليزي يقسم العلوم قسمة عامة . ثم ينتهي إلى إحدى نتيجتين : فهو إما أن يقسم العلوم في تلك المظاهر المادية التي تخضع للقوانين الآلية الصارمة . ثم ينصرف بناء على ذلك إلى دراسة الوجود المادي بما فيه من صور وأوضاع : وإما أن ينتهي إلى انكار ذلك الوجود المادي جملة وتفصيلا . واعتباره من خلق العقل وتكوينه . ثم يتجه على هذا الأساس إلى دراسة العقل وحده . لأن في دراسته دراسة للوجود بأسره . ما دام ذلك هو الذي خلق هذا خلقاً . وأنشأه انشاء .

إذاً فقد انقسم الفلاسفة قسمين مختلفين : فريق ينصرف بأسره إلى العلوم الطبيعية لأنها السبيل إلى تفهم مظاهر الكون . وفريق يكب على دراسة النفس انكبابا . لأنها هي كل شيء . ونحن نستطيع أن نقول في شيء من الدقة ان تاريخ الفلسفة الحديثة ينحصر في هذا العراك العنيف القائم بين علم النفس والعلوم الطبيعية . فهذه منشد الحقيقة في دراسة الظواهر المادية . وقد ترى في طريقها من بوارق الأمل الباسم ما تمضي معه في بحثها ثابتة اليقين موطدة العزيمة . وذلك يلتمسها في دراسة النفس دون المادة وهو مؤمن أن ليس أقوم من تلك السبيل سبيل

ولكن جاء القرن التاسع عشر . فانعرج ذلك المجرى الفكري بعض الشيء . واتجه إلى دراسة المظاهر المادية اتجاهاً مباشراً . دون الوقوف على هذه النفس الانسانية وقفة تحليلية . ولعل ذلك راجع إلى أن الانسان قد خيل إليه ان العلوم الرياضية والميكانيكية وما إليها . هي التي دفعت به في العصر الحديث هذا الدفع السريع . وله عذره في هذا الظن . ما دامت الصناعة التي تنمو ارجاؤها في أوربا . والتي قلبت الحياة رأساً على عقب . هي ربيبة تلك العلوم . . . إذا فلماذا لا تدرس هذه العلوم الطبيعية دون سواها ؟ هكذا اصطبغت الفلسفة في القرن الماضي بصبغة مادية . وذهبت في الفضاء صيحة ديكارت التي اخ بها في أن تبدأ الفلسفة سيرها من النفس ثم تتابع طريقها إلى العالم الخارجي .

انطوى القرن التاسع عشر أو كاد . فبدأ الانسان يفيق بعض الشيء من تلك الفتنة التي أخذ بها الانقلاب الصناعي . وأخذ الفكر ينزع عن نفسه شيئاً فشيئاً ذلك الثوب المادي الذي اشتمله واحتواه حيناً من الدهر . ويبحث عن حقيقة الوجود في « الحياة » التي تدب

ن اجسام الكون . لاف حركة القصور الذاتي التي تنتظم الجماد . ومازال الفكر يمعن في هذه النزعة الجديدة حتى كادت الحياة تذوب في المادة نفسها . واصطبغت العلوم الطبيعية بصبغة حيوية . وهكذا كتب لها أن تلقى السلاح وتندحر أمام علم النفس فيما تشب يبيما من عراك .

ولعل شوبنهور هو أول من فطن الى أن « الحياة » هي أساس الوجود ؛ ثم جاء برجسون في عصرنا الحاضر وتناول هذه الفكرة بحثا واستقصاء . حتى استطاع بقوة ايمانه أن يجذب اليها انظار هذا العالم الذي طغت عليه روح اللاأدرية والشك طغيانا مروعا .

عكف برجسون على دراسة المذهب المادي ، وخلاصته ان العالم كتلة موات من المادة والحركة . وان الحياة والفكر وكل خصائص الانسان ليست سوى اعراض مختلفة لتفاعل المادة والقوة التي تحرك دقائقها . فكان كلما أمعن في تلك الدراسة ، ازداد يقينا بفساد ذلك المذهب . وهو يتساءل في دهشة : اذا كان العقل مادة وكانت كل عملية عقلية عبارة عن هزة عصبية لا أكثر ولا أقل ، فما فائدة الشعور ؟ أليس مجرد وجود الادراك دليلا قويا على ضرورته ؟

يقول المذهب المادي أن ليس ثمة « حياة ارادية » . أي ليس في الوجود تلك القوة الحيوية التي تريد هذا فتعمله . ولا تريد ذاك فتنفذه ، وكل ما هنالك حالات مادية متتابعة ، كل حالة نتيجة لما قبلها ومقدمة لما بعدها ؛ وهنا يتساءل برجسون : اذا كان الوجود وما يحوي في لحظة معينة نتيجة آلية للحظة التي سبقتها ، دون أن تكون هناك قوة مدركة تنتقي وتكون وتختار ، واذا كانت تلك اللحظة السابقة بدورها أثرا آليا للتي سبقتها ، وهكذا دواليك . فحين اذاً نسير في هذا التسلسل حتى نصل الى القديم الأول ، ونتخذ منه سببا لكل ما طرأ على الكون من أحداث ، لا فرق بين دقيقها وجليلها ! ماذا ؟ هل يريدنا ذلك المذهب على أن نعتقد بأن القديم هو السبب فيما كتبه شكسبير مثلا ؟ وأنه العلة في خطابة أنطوني وهملت ؟ !

هكذا أخذ برجسون من منطق الماديين ما يكفي وحده للرد عليهم ودك مذهبهم من أساسه

العقل والجسم

لعل ما حدا بالانسان الى النزعة المادية في تفكيره هو ارتباطه بالمكان ارتباطا وثيقا ، حتى خيل اليه أن الحياة ليست الا هذه الصور المكانية التي يحسها ؟ ولكن الحق الذي لا ريب فيه هو ان جوهر الحياة وروحها انما ينحصران في الزمان أكثر مما يتعلقان بالمكان . والزمان في الواقع عبارة عن تراكم صور كونية بعضها فوق بعض ، أو ان شئت فقل صورة كونية واحدة امتدت على طول الزمان وأخذت تنمو وتتزايد شيئا فشيئا . ومعنى ذلك أن الماضي من بدء الأزل لم يفن ، وانما أخذ يتقدم وتتزايد أحداثه قليلا قليلا الى أن تضخم فكون الزمان الحاضر

واذا كان الزمان عبارة عن مجموع الصور التي مرت على الوجود فيستحيل أن يكون المستقبل مشابها للماضي . لأن في كل خطوة زيادة تضاف الى تلك الكومة المتراكمة ، وفي كل دقيقة ينشأ شيء جديد ليس نتيجة لمقدمة سابقة ولكنه خلق خلقاً ولا يمكن استنتاجه قبل حدوثه . فالتغير سنة الحياة وألزم صفاتها

والذاكرة عند الانسان هي الوعاء الذي يحتفظ مع الزمن فيختزن فيه هذه الصور المتراكمة المتزايدة ، لكي تكون لنا عونا في حياتنا ، اذ كلما اتسعت دائرة الحياة اتسع معها نطاق الاختيار ، أي يعرض للانسان مؤثرات عدة تستدعي منه سرعة اختيار للطريقة المناسبة لكل من تلك المؤثرات . وهذه المؤثرات وتلياتها تكون في الانسان ادراكا يستعين به في كل ما يعرض له من مشكلات

فالكائن الحي كتلة فعالة مؤثرة . لأنه يضيف الى العالم قوة ونشاطا ، وليس الانسان كما صوره الماديون آلة ميكانيكية لا حول لها ولا قوة ، ينفعل ويتأثر بعوامل البيئة دون أن يكون مركزا للخلق والريادة . ففي قولنا ان الانسان مدرك لما يعمل اعتراف ضمني بحرية اختياره .

قلنا ان وظيفة الذاكرة هي استدعاء الصور الذهنية التي مرت بنا في التجارب الماضية مقرونة بما سبقها وما تلاها ، فتتمكن بذلك من الحكم في المواقف المشابهة التي قد تعرض لنا ، حكما صادقا . ولكن للذاكرة فوق هذا عملا آخر ، فبواسطتها نستطيع أن نستوعب الخلود بأسره في دقيقة واحدة ، وفي ذلك تحرير لنا من قيود الضرورة الطبيعية التي تخضع لها الأشياء الجامدة . يخطئ اذاً من يحسب الانسان آلة صماء في يد القوانين المادية . انما هو كائن مدرك . حر الارادة . قادر على اختيار سلوكه معين ؛ والاختيار خلق وانشاء . فليس الانسان رتيبا في حياته كالحيوان المحدود بغرائزه .

واذاً فليس العقل والمخ (أي الجسم) شيئاً واحدا ؛ صحيح ان الادراك العقلي يعتمد على المخ ، يسير وينحط تبعا لسلامة هذا أو اعتلاله ، ولكن كما تعتمد ملابسك على المشجب . تظل عالية مادام المشجب مثبتا في الحائط ، وتهوي اذا ما سقط من مكانه . وبديهي أن ذلك لا يدل على أن الملابس والمشجب شيء واحد .

فالمخ مجموعة من التصورات وردود الأفعال . أما الادراك

هو تلك القوة التي تختار من بين تلك المجموعة ما تريد . المخ هو المجرى الذي يسير فيه تيار الادراك ، ولكن ليس الماء ويجراه شيئاً واحداً . وأنت يكن ذلك محدوداً بهذا . ولا بد له ان يخضع لاتواءاته وتعاريجه .

واذا كان هذا هكذا ، فما الذي حدا بنا الى الاعتقاد بأن العقل والمخ شيء واحد ؟ لعل ذلك راجع الى أن جزءاً من عقولنا ، وهو ما نسميه بالذكاء ، قد نشأ وتطور لكي يمارس الأجسام المادية ويتفهمها ، فاكتسب من هذا الميدان المادي كل تصوراته وقوانينه . وهكذا أخذ الارتباط الذهني بين العقل والمادة يسمو شيئاً فشيئاً . حتى انتهى بنا الأمر الى الظن بأنهما شيء واحد ؛ ولكن هذا الذكاء الذي يكشف لنا عن العلاقات التي تصل المظاهر الكونية بعضها ببعض ، عاجز كل العجز عن ادراك الامتداد الزمني وما يجري فيه لتلك المظاهر من تغير وخلق ، أو بعبارة أخرى هذا الذكاء الذي يفكر في الصور المادية لا يستطيع أن يدرك ما في الكون من حياة ، لأنه يلتقط صوراً متلاحقة بعضها يجيء في أثر بعض ، أي انه يلتقط صورة الكون في هذه اللحظة ، ثم صورته في اللحظة التي تليها ، ثم صورة ثالثة في التي تليها وهكذا . ومعنى ذلك أن العالم الخارجي في نظر العقل عبارة عن جملة صور لحظية تملأ كل صورة منها الكون بأسره ؛ هذه الصور تتلو الواحدة منها الأخرى لحظة بعد لحظة ، وكل صورة لحظية من هذه الصور تمثل الحقيقة الخارجية في لحظة من اللحظات . ثم من تتابعها يتألف مجموع الحقائق الخارجية من أول الماضي الى آخر المستقبل . الا أن تلك الصور تظل مستقلة في الذهن ، لا يتناولها الاستمرار أو الحركة التي تربطها جميعاً ، مع ان الحياة ليست الا في وصل هذه الصور المجزأة . مثل العقل في ذلك ، كمثل الشريط السينمائي الذي يلتقط عدداً من الصور المتلاحقة ، لا حياة في كل منها على حدة ، فاذا ما دبت فيها الحركة والاستمرار ، واتصل بعضها ببعض ، كونت حياة ، أو شيئاً يشبه الحياة . ولن يكون في هذه الصور التي تصلنا عن طريق الحواس شيء من الحياة ، حتى يتناولها تيار الحركة الدائم الذي يربط أشتاتها ويكون منها حقيقة واحدة يطرأ عليها التغير والتبدل كلما مر عليها شطر من الزمان

صحيح أن كل صورة حسية هي جزء من الحياة ، ولكن مجموعها لا يكون مجموعة الحياة ، الى أن يتحقق في أجزائها شرط الاتصال والربط ، فكما أن كل جزء من الخط المنحني يمكن أن يكون جزءاً من خط مستقيم بدليل أنهما يتماسان في أي نقطة شئت ، ومع ذلك لا تستطيع أن تقول : بما أن أجزاء هذا هي أجزاء ذاك ، اذن فالخط

المنحني هو الخط المستقيم ؛ كذلك قل في الحياة والمظاهر الطبيعية . فليست الحياة هي مجموعة المظاهر الطبيعية ، على الرغم من أن تلك المظاهر هي الجزئيات التي تتكون منها الحياة .

يستنتج من هذا أن العقل ليس هو الأداة الصالحة لادراك الحياة ، لأن هذا يطالب فوق مقدوره وأكثر مما يستطيع ، اذ العقل كما بينا يميل الى استعمال الوجود لصالحه . وهذا الاستعمال يتطلب منه وقف تيار الحياة الذي يدعى الكون ، وتجزئة الوجود للتمكن من بعضه . فالعقل والحواس آلات للتجزئة ، والغاية منهما تيسير الحياة لا تصوير الوجود ، أي انها تتناول الوجود في ظاهره ولكنها لا تنفذ الى باطنه . . . ولما كانت المعرفة الحقيقية هي التي تتمشى مع الوجود في تحوله ، وتتغلغل في باطن الأشياء . وتحسها احساساً مباشراً كما يحس الحمل الوديع وجوب الفرار من غائلة الذئاب ؛ فالبصيرة وحدها هي الأداة الصالحة لذلك النوع من المعرفة المباشرة ، لأنها حاسة الحياة التي تتغلغل تلك الوحدة الحيوية التي تربط أجزاء الوجود .

التطور خلق وانشاء

لا يمكن أن يكون تطور الحياة على تلك الصورة البشعة القاسية التي رسمها داروين وسبنسر ، انما التطور خلق مستمر ، وتجديد متواصل ، وتغير لا ينقطع .

الانتخاب الطبيعي عند داروين هو الأساس الذي تقوم عليه نشأة الأعضاء والوظائف والأنواع . ولكن لم يكد يستوي ذلك المذهب على قدميه ، حتى أحاط به من الصعاب والمشكلات ما لم يقو على رده ، فكاد يخر صريعاً وهو ما يزال في يفاعه .

كيف يستطيع الانتخاب الطبيعي أن يفسر نشأة حاسة الابصار مثلاً ؟ أولا ، لابد أن نسلم بأنه من المستحيل أن تكون العين قد نشأت على هذه الصورة المعقدة من بادىء الأمر ، فاذا فرضنا أنها تكونت بعد سلسلة من الأطوار ، فهل من اليسير أن نقنع عقلا سليما أن تلك الأدوار التي مرت بها عين الانسان تطابق تمام المطابقة الأدوار التي مرت بها الحواس الابصارية لانواع الحيوان جميعا ؟ ! مع أن الانتخاب الطبيعي أساسه المصادفة المحضة ! وهل من الجائز أن تكون سلسلة المصادفات التي تعاقبت على عين الانسان وأذنه وأنفه وسائر أعضائه الأخرى هي هي التي تعاقبت على أعضاء الحيوانات جميعاً ؟ !

واذا سلمنا — جدلا فقط — بأن تلك المصادفة السحرية

النحلية جائزة فى أنواع الحيوان لتشابه المؤثرات التى تحيط بها جميعا. فما قولك فى الحيوان والنبات . وهما نوعان يسيران فى طريقين مختلفين أتم اختلاف ؟ كيف يتفق الاثنان على طريقة واحدة للتناسل ؟ كيف يرتقى الحيوان . عن طريق المصادفة . الى اختراع الذكورة والأنوثة اداة للتكاثر . ثم يرتقى النبات عن هذا التوفيق وعن طريق المصادفة أيضاً ؟!!

كلا ! يستحيل أن يكون هذا الأساس الواهى قاعدة التطور ولابد أن يكون فى أجزاء الوجود — مهما تنوعت أشكالها — قوة كامنة متشابهة فى الجميع : هى الحياة . وهذه الحياة الحالة فى كل شىء تخلق فيه ميلا خاصاً وترجيحاً معينا يؤثران فى كل جزئى من جزئياته . وهكذا يظل الجسم المادى يتشكل ويتغير حسب ذلك التوجيه الذى تمليه تلك الحياة الدافقة الكامنة فيه . وليس ثمة قوة خارجية تعمل على التطور كما خيل الى داروين وأشياع مذهبه .

هذه الحياة الشاملة تسعى جهدها للتغلب على الجمود المادى وطمس معالمه من الوجود . فهى تتغلب على الموت بالتناسل ، وان ضحت فى سبيل ذلك الأفراد : وهى تبذل كل مافى طاقتها من قوة لتحرير نفسها من قوانين المادة وأغلالها : فوقوف الحيوان وسيره وسعيه وكل مايأتى من ضروب الحركة والنشاط . هو فى الواقع تحد من الحياة لتلك الأغلال والقيود .

كانت الحياة فى مبدأ ظهورها أشبه ماتكون بالمادة فى جمودها واستقرارها ، لأنها كانت تتمثل فى النبات وحده . والنبات كالجماد فى سكونه واستحالة سعيه وحركته : ولكنها ما لبثت أن اشتدت الحرية من تلك القيود المادية : وراحت تسعى وراء ذلك المثل الأعلى . فاخترعت أنواع الحيوان . وزودتها بشتى الأعضاء التى يستطيع أن يحقق بها شيئا من تلك الحرية المنشودة . ثم ما لبثت أن عقدت آمالها فى واحد من تلك الحيوانات جميعا : هو الانسان. فلا شك فى أن الحياة تحاول ما استطاعت أن تسخر من قيود المادة . ونحن نضحك ونسخر اذا مارأينا كائنا حيا يتصرف كما تتصرف الكتلة المادية الجامدة . كأن تزل قدمه فيسقط بقوة الجاذبية كما تسقط قطعة الحجر .

يتضح من ذلك أن الحياة قد سارت فى تطورها خلال مراحل ثلاث :

الأولى : مرحلة النبات اذ كانت أقرب ماتكون الى سكون المادة وجمودها .

الثانية : مرحلة الحيوان الغريزى كالنحل والنمل الذى يتحرك ويسعى . ولكن فى حدود مرسومة وخطة معلومة .

الثالثة : مرحلة الحيوان المفكر . الذى أخذ يسير فى طريق التفكير . ولن يزال هذا التفكير ينمو ويشتد ويستقيم . فهو ذخر الحياة وأملها الذى سيحقق لها مانشتد من حرية .

هذه الحياة التى لا تفتأ تخلق وتبتكر وتبتدع . والتى تلمس الحرية من قيود المادة . هى الله . فالله والحياة اسمان على مسمى واحد . ولكنه ليس هو سلطان تحديد يسود المادة . وليس مطلق الارادة كما تصوره الأديان . الا انه دائب فى التخلص من أغلاله وأصفاده وأغلب الظن أن الحياة ستظفر آخر الأمر . ونكاد نوقن أنها ستتغلب على الموت . فتحقق لها الحرية والخلود . فكل شىء جائز فى نظر الحياة مادام فى الزمن امتداد

وبعد . فما أجمل أن يرتفع صوت يرجعون بشيرا عما فى الكون من حياة فعالة خالقة ، ليقف تيار المادية الذى طغى على اوروبا فى القرن الماضى ، حتى غمرها بين ثناياه . وكم كنا نود أن نشترك معه فى نيل ذلك العرش الذى كان يتربع عليه اله العقل . ولكن على شريطة ألا يدعونا الى تقديس اله آخر : هو البصيرة : لأنها قد تخطىء كما تخطىء الحواس .

موجز التاريخ الطبيعى

فى علم الحيوان

للسنة الرابعة الثانوية

تأليف محمد كمال محمد

المدرس بمدرسة شبرا الثانوية

نشرته لجنة التأليف والترجمة والنشر .

يقع فى ١٢٦ صفحة . وهو موضح بالرسوم وبه ثلاث لوحات ملونة ، سهل الأسلوب دقيق العبارة ، وقد عنى المؤلف عناية خاصة بصفات الرتب ، وذيله بمجموعة شيقة من الاسئلة

وهو يباع فى مقر اللجنة بشارع الساحة رقم ٣٩ تليفون ٤٢٩٩٢ ومن المكاتب الشهيرة وثمنه عشرة قروش عدا اجرة البريد

في الأدب العربي

ابن خلدون في مصر

للأستاذ محمد عبد الله عنان

١

ترددت خلال العام الماضي دعوة الأحياء ذكرى المؤرخ الفيلسوف ابن خلدون لمناسبة انقضاء ستمائة عام على مولده[١]. فاستجابت دوائر التفكير والأدب في جميع البلاد العربية لهذه الدعوة الكريمة، وأقيمت عدة حفلات علمية للاشادة بذكره وخلد آثاره، ولاسيما في تونس مسقط رأسه ومطلع مجده، وفي مصر مقام شيخوخته ومثوى رفاته؛ وحفلت المجلات والصحف حينا بمختلف البحوث عنه. ولكن ناحية من حياة المفكر الكبير لم تلق كبير عناية. تلك هي حقبة مقامه بمصر، وصلته بها، وأثره فيها؛ وهذا ما نريد أن نعنى به في هذا الفصل تحية لذكرى المؤرخ والفيلسوف الاجتماعي الأشهر

غادر ولي الدين عبد الرحمن بن خلدون تونس في منتصف شعبان سنة ٧٨٤ هـ (اكتوبر سنة ١٣٨٢ م)، فوصل ثغر الاسكندرية في يوم عيد الفطر بعد رحلة بحرية شاقة. ويقول ابن خلدون في تعريفه عن نفسه: انه قدم الى مصر ليلتظم منها في ركب الحاج، وانه لبث بالاسكندرية شهرا يهيء العدة لذلك، ولكن لم يتح له يومئذ أن يحقق هذه الغاية، فقصد الى القاهرة[٢] وكان قضاء الفريضة حجته الظاهرة في مغادرة تونس، واستئذان سلطانها أبي العباس في السفر الى المشرق. ولكن ما يقصه ابن خلدون من الحوادث قبل ذلك يدل على أن مغادرته لتونس كانت فرارا؛ وكانت خشية من بطش سلطانها، وغدر بلاطها. وكان ابن خلدون قد انفق نحو ربع قرن في خوض غمار السياسة ودسائس القصور، وتقلب في خدمة معظم سلاطين المغرب والاندلس. وذاق نعم الرياسة ومحن القمة مرارا، وعانى مرارة السجن والأسر وخطر الهلاك غير مرة. ولم تهدأ نفسه المضطرمة لعنف المغامرة والصراع الدامي الا في كهولته، يوم أعيته الحيل، وعلته الأرزاء والمحن، وفقد عطف معظم القصور التي تقلب فيها، وأضحى يتجرع بقضاء تلك المهام السلطانية التي كان يتخذ قضاءها وسيلة للهو وذو الرياسة. عندئذ عافت نفسه غمر السياسة ودسائس القصور، فارتد في أواخر سنة ٧٧٦ هـ الى قلعة ناثية منعزلة بناحية أولاد عريف بالمغرب الأوسط؛ وهنالك انقطع للبحث والتأليف مدى أربعة أعوام وأخذ في كتابة تاريخه الضخم، وأنجز منه مقدمته الشهيرة وعدة مجلدات أخرى. ثم رأى أن يقصد الى تونس ليستكمل مراجعه في مكاتبها. وكانت بينه وبين سلطانها وحشة: فاستأمنه وحصل على رضائه؛ وغادر مقامه الناثي الى تونس فوصل اليها في شعبان سنة ٧٨٠. وهنالك اشتغل باتمام مؤلفه بتكليف السلطان ورعايته حتى أتمه ورفعه الى السلطان، ومدحه يومئذ بقصيدة طويلة أوردها في «تعريفه». وكان ذلك لنحو عامين من مقدمه الى تونس (٧٨٢ - ١٣٨٠ م)[١]

وهنا ألفى ابن خلدون نفسه في معترك جديد من الدسائس، وقصده رجال البطانة بالكيد والسعاية لدى السلطان. وأغروه أكثر من مرة باستصحابه الى غزواته ومهامه الخطرة. فخشي ابن خلدون عاقبة السعاية. ولم يجد في تونس ما كان ينشده من هدوء وسكينة. فانتهز فرصة وجود السلطان في تونس، ووجود سفينة مصرية في مرساها تقصد الاسكندرية. فألح على السلطان في الاذن له بالسفر لقضاء الحج. وركب البحر بمفرده تاركا اسرته في تونس. فوصل الاسكندرية كما قدمنا في يوم عيد الفطر سنة ٧٨٤[٢]

كان مقدم ابن خلدون الى مصر اذاً، نوعا من الفرار وخيفة البطش والمحنة. ولم يكن قضاء الفريضة قصده المباشر، بل كان حجته الظاهرة. وكان يرجو بلا ريب أن يقضي بقية أيامه بمصر في هدوء

(١) كان مولد ابن خلدون في رمضان سنة ٧٣٢ هـ = مايو سنة ١٣٣٢ م

(٢) «التعريف بابن خلدون»؛ وهو ترجمة المؤرخ لنفسه في ذيل تاريخه — راجع، كتاب المصري (تاريخ ابن خلدون) ج ٧ ص ٤٥٠ ويشغل هذا التعريف من ص ٣٢٩ الى ٤٦٢ — وسنعود الى ذلك بعد

(١) كتابنا المصري ج ٧ ص ٤٤٤ وما بعدها.

(٢) كتاب المصري ج ٧ ص ٤٥١

ودعة ، وأن ينعم بذلك الاستقرار الذى لم تهيئه له بالمغرب حياة النضال والمغامرة . وكان يومئذ فى الثانية والخمسين من عمره ، ولكنه كان وافر النشاط والقوة ، يتطلع دائما الى مراتب النفوذ والعزة ؛ وكانت القاهرة يومئذ موئل التفكير الاسلامى فى المشرق والمغرب ، وللاطها شهرة واسعة فى حماية العلوم والآداب . فكان يرجو أن ينال قسطه من هذه الرعاية والحماية . ووصل ابن خلدون الى القاهرة فى أول ذى القعدة سنة ٧٨٤ — نوفمبر سنة ١٣٨٢ ؛ فبهرته ضخامتها وعظمتها وبهاؤها كما بهرت سلفه ومواطنه الرحالة ابن بطوطة قبل ذلك بنصف قرن[1] وكما بهرت على كر العصور كل من رآها من أعلام المشرق والمغرب . ولا غرو فان المؤرخ لم ير بالمغرب سوى تلك المدن الصخرية المتواضعة ، ولم ير بالأندلس حيث قضى ردحا من الزمن ، مدينة فى عظمة القاهرة وروعتها . وهو يقف للقاهرة أثر مقدمه ويحييها بحماسة تنم عن عميق إعجابه وسحره وتأثره ، ويصفها فى تلك الفقرة الرنانة : « فرأيت حاضرة الدنيا ، وبستان العالم ، وعشر الأمم ، ومدرج الذر من البشر ، وايوان الاسلام ، وكرسى الملك : تلوح القصور والأواوين فى جوه ، وتزهو الخوانق والمدارس والكواكب بآفاقه ، وتضىء البدور والكواكب من علمائه ؛ قد مثل بشاطىء النيل نهر ، وملقح مياه السماء ، يسقيه العلل والنهل سيحه ، ويجبى اليهم الثمرات والخيرات نجبه ؛ ومررت فى سكك المدينة تغص بزحام المارة ، وأسواقها تزخر بالنعم . . . »

ولم يكن ابن خلدون نكرة فى مصر . فقد كان المجتمع القاهرى يعرف الكثير عن شخصه وسيرته ؛ وكانت نسخ من مؤلفه الضخم ولاسيما مقدمته الشهيرة قد ذاعت قبل ذلك بقليل فى مصر وغيرها من بلدان المشرق . وأعجبت دوائر العلم والتفكير والأدب بطرافة مقدمته وجدتها وروعة مباحثها . فلم يكد يحل بالقاهرة حتى أقبل عليه العلماء والطلاب من كل صوب ، يقول ابن خلدون فى كبرياء وتواضع معا : « واتئال على طلبة العلم بها يلتمسون الأفادة مع قلة البضاعة . ولم يوسعونى عذرا »[2] وهذا ماتشير اليه التراجم المصرية : فيقول ابو المحاسن بن تغرى بردى فى ترجمته لابن خلدون : « واستوطن القاهرة وتصدر للاقراء بالجامع الأزهر مدة ، وأشتغل وأفاد »[3] ويقول السخاوى : « تلقاه أهلها (أى أهل مصر) وأكرموه وأكثروا ملازمته والتردد عليه . بل تصدر للاقراء بالجامع الأزهر مدة . . . »[4] . جلس ابن خلدون للتدريس بالأزهر ، والظاهر أنه كان يدرس الحديث والفقه المالكى ، ويشرح نظرياته فى العمران والعصبية وأسس الملك ونشأة الدول ، وغيرها مما عرض اليه فى مقدمته . وكانت هذه الدروس خير أعلان عن غزير علمه ، وشائق بحثه ، وساحر بيانه . وكان ابن خلدون محدثا ، بارعا رائع المحاضرة ، يخلب اللب بسامعيه عذوبته وذلاقته . وهذا ماحدثنا به جماعة من أعلام التفكير والأدب المصريين الذى سمعوه أو درسوا عليه ؛ ومنهم المؤرخ الكبير تقى الدين المقريزى الذى سمعه ودرس عليه فقه[5] وكذا الحافظ ابن حجر ؛ فقد درس عليه وانتفع بعلمه ووصفه بقوله : « وكان لسنا ، فصيحا ، حسن الترسل وسط النظم ؛ مع معرفة تامة بالأمور خصوصا متعلقات المملكة »[6] ونقل السخاوى عن الجمال البشبيشى انه « كان فصيحا مفوها جميل الصورة » ، وعن الركراكى « ان محاضرته اليها المنتهى »[7] .

وهكذا استطاع ابن خلدون لأول مقدمه أن يخلب اللب المجتمع القاهرى ، وأن يستثير اعجابه وتقديره ؛ ولكن صفاء الأفق من حوله لم يدم طويلا كما سنرى . وفى اثناء ذلك اتصل ابن خلدون بأكثر من أمراء البلاط يدعى علاء الدين الطنبغا الجمالى ، فشمله برعايته ، وساعده على التقرب من السلطان والاتصال به . وكان السلطان يومئذ الظاهر برقوق ؛ وقد ولى الملك قبيل مقدم ابن خلدون بأيام قلائل (أواخر رمضان سنة ٧٨٤) ، فأكرم وفادة المؤرخ واهتم بأمره ؛ يقول ابن خلدون : « فأبر مقامى ، وآنس الغربة ، ووفر الجراية من صدقاته ، شأنه مع أهل العلم » وبذا تحققت أمنية المؤرخ من الاستقرار والمقام الهادىء فى ظل أمير يحميه ويكفل رزقه ، ولم يمض قليل على ذلك حتى خلا منصب للتدريس بالمدرسة القمحية ، بجوار جامع عمرو وهى من مدارس المالكية فيه السلطان فيه . ويعنى ابن خلدون فى تعريفه بوصف مجلسه الأول فى هذا المعهد :

« البقية على صفحة ٢١ »

(١) وفد ابن بطوطة على القاهرة سنة ٧٢�6 هـ — ١٣٢٦م فى عهد الناصر بن قلاوون

(٢) كتاب العبر ج ٧ ص ٤٥٢

(٣) كتاب المنهل الصافى لابن تغرى بردى — نسخة دار الكتب المخطوطة رقم ١١٢ تاريخ — ج ٢ ص ٣٠٠

(٤) الضوء اللامع فى أعيان القرن التاسع عشر السخاوى — نسخة دار الكتب الفوتوغرافية رقم ٦٧٥ تاريخ المجلد الثانى من القسم الثانى — ص ٣٦٧

(٥) تعود الى تقدير المقريزى لشيخه ابن خلدون فيما بعد .

(٦) كتاب أنباء الغمر فى أبناء العمر لابن حجر العسقلانى (نسخة دار الكتب المخطوطة رقم ٢٤٣٩ تاريخ) ج ١ ص ٧١١

(٧) الضوء اللامع — المجلد الثانى من القسم الثانى — ص ٣٦٩

(٨) هكذا اسمه فى « المنهل الصافى » ولكن السخاوى يسميه « الطنبغا الجوانى »

أثر اللغة العربية في العالم الاسلامي

للسر دنسون روس

مدير مدرسة اللغات الشرقية بلندن

هذه ترجمة المحاضرة الأولى من المحاضرات الثلاث التي ألقاها السر دنسون روس باللغة الانجليزية في قاعة الجمعية الجغرافية الملكية إحياء لذكرى الجامعة المصرية وقد قدمه الخطابة على كل محاضرة خمسين جنيها ستسترد ترجمة المحاضرتين الأخريين تباعا في الاعداد المقبلة

تمهيد :

أشعر وأنا أختار موضوعا مثل هذا لمحاضرة في الجامعة المصرية ، انه ينطبق على المثل القائل « كمن يجلب الفحم إلى نيوكاسل » أو على حد تعبير الفرنسيين « كمن يحمل الماء الى البحر » أو كما يقول العرب « كمن ينقل التمر الى البصرة » أو « كمن يبيع الماء في حارة السقائين » .

إذ كيف يجرؤ شخص مثلي لا يخرج عن كونه تلميذاً يدرس العربية أن يقوم ببحث في هذه اللغة العظيمة على مرمى حجر من الأزهر ؟ إن اعتذاري عن هذا ينبغي أن يكون اعتذار النملة أمام عرش سليمان ..!

وربما قيل عن عنوان محاضرتي أنه تقرير لقضية مسلمة ، فالعربية لغة القرآن والحديث وتأثيرها في العالم الاسلامي حق لا ريب فيه .

ولكني أرجو أن أسوغ عنواني هذا بأن أبين تأثير اللغة العربية في تلك الممالك التي تتكلم لغات أخرى ، وتتكلمها لا على أنها واسطة لفهم العقائد وإقامة الشعائر الدينية فحسب ، بل لأنها عامل منتج من الثقافة العامة .

ذلك لأنه ينبغي أن نعلم حق العلم أن ليس ثمة دين عالمي آخر قامت فيه اللغة الأصلية للكتب المقدسة بذلك الشأن الخطير كما هو الحال في الاسلام .

فاذا اعتبرنا البوذية والمسيحية وهما ديانتان تقومان بالدعاية فاننا نلاحظ أن كتبهما المقدسة إذا أذيعت في ممالك أخرى فانما تذاع بلغة تلك الممالك . خذ لذلك مثلا تلك المجموعة الضخمة بمجموعة القوانين البوذية المعروفة باسم « السلات الثلاث » (١) فانك تجدها مقروءة في الصين واليابان مترجمة إلى لغة تلك البلاد . حقاً إن لغة الهند الأصلية قد اختفت كما اختفت البوذية نفسها من الهند .

وقل مثل هذا عن التوراة والانجيل فانهما يقرآن في الأمم المسيحية بلغة كل منها دون أن تقوم العربية أو المسيحية بأي شيء في حركات الدعاية التي تقوم بها الجمعيات الدينية .

وان اللغة الوحيدة التي يمكن مقارنتها بالعربية من حيث أنها واسطة للعالم الديني إنما هي اللغة العبرية . على أن هناك اختلافا بين الحالتين من بعض الوجوه وإن اتفقت اللغتان في أن كاتبيهما تدين بمخترعها الاسمي إلى أنها لغة الكلام المنزل من عند الله . وانا العبرية فتجد أن كل بقي من اليهود يحفظ قسطاً منها . ولكن اليهودية لا تعتبر الآن من الأديان الواسعة الانتشار وذلك على الرغم من انتشار جماعات اليهود في أنحاء العالم . وإنك لتجد طوائف وطنية منهم في الحبشة أثيوبيا لا يعرفون من العبرية إلا قليلا .

ويجب أن نذكر أني إنما أبحث في التأثير اللغوي الذي أحدثه القرآن لان رسالة النبي . وعلى ذلك فاظني أستطيع تقرير تلك الحقائق دون أن أسيء الى الحاضرين من المسيحيين واليهود .

إن التأثير الذي تركته التعاليم البوذية والكتب العبرية المقدسة في آداب الممالك البوذية والمسيحية لا يقل شأناً عن تأثير القرآن إن لم يكن أكثر في ناحية الفن .

ولكن ما حدث في الصين وفي أوربا هو أن تلك الكتب المقدسة قد أصبحت جزءاً من الآداب القائمة إذ ذاك وكانت تلك الآداب غنية بالأبحاث والموضوعات الدنيوية . وفيما يتعلق بأوربا نقول إنه لما كانت اللغات الحديثة قد اشتقت من اللاتينية والتوتونية القديمة ، فانه لما ترجم الانجيل الى تلك اللغات . أصبح ذلك الكتاب هو المؤثر الثابت فيها كما يشهد بذلك الجهد الذي بذله لوثر في وضع أساس الألمانية الراقية الحديثة .

نعم لقد لعبت اللاتينية بين الكاثوليك دوراً مشابهاً لذلك الدور الذي لعبته العربية بين المسلمين « ولكن اللاتينية لم تكن لغة التنزيل » .

الموضوع :

ولنعد الآن الى الموضوع الأساسي لمحاضرتي . وستكون الممالك التي يتناولها بحثي هي تلك التي لا يزال الاسلام سائداً فيها ولكن لا تتكلم العربية . أعني بلاد الفرس وبلاد الهند وما وراء النهر وتركيا .

إن دخول الشرق الأدنى والشرق الأوسط والهند تحت نفوذ العرب — وقد كانوا أنفسهم حديثي العهد بالدخول في الدين الجديد وقبول « الوحدانية السامية »(٢) — قد أدى الى ثورة عظيمة « في الأدب والثقافة » لا تقل في خطورتها من حيث

(١) Taripitaka or Three Baskets

(٢) Semitic Monotheism

قوتها وتمامها ، ومن حيث أنها مدأ عهد جديد . عن ذلك التغير الذى طرأ على العقيدة الدينية

ويرجع هذا فى أساسه الى ذلك التأثير المعجز الذى أحدثه القرآن فى نفس كل من اعتنق الاسلام .

فان القرآن وهو كلام الله الذى أنزله على رسوله قد قوبل من المسلمين قاطبة بالاحترام والاجلال . أولا ، من أجل عباراته ذاتها لأنها تنزيل من الله ، وثانيا لما اشتمل عليه من الآيات البينات ، ومن أجل ذلك كان لزاما على من يقبل الاسلام أن يقبل معه اللغة العربية ، تلك اللغة التى نزل بها القرآن وأرسل بها الرسول .

وهنا لا نجد لغة غريبة غير مستعملة لا يفهمها إلا عدد محصور من العلماء كما كان الحال فى ديانة زرادشت(١) والديانة الهندية(٢) ، بل نجد (لغة حية) يتكلمها أولئك القوم الذين دعوا سكان الممالك التى فتحوها الى الدخول فى الدين الجديد .

إن الرقى الفجائى الذى طرأ على اللغة العربية وأحالها الى لغة مهذبة مكتوبة ليعد من أعجب الأمور اذا تذكرنا أنه فى الوقت الذى ظهر فيه الرسول لم يكن لدى العرب « أدب لغة »(٣) بالمعنى الذى يفهم من هذه العبارة . وان استعمال الخط كان قليلا الى درجة كبيرة بدليل أنه فى أثناء الكفاح بين المسلمين وأعدائهم كما حدث فى بدر وأحد كان المتبع أن يبقى المسلمون على حياة من يعرفون الكتابة من الأسرى .

ولكن العرب قد أخرجوا فحول الشعراء الذين تغنى الناس بشعرهم فى طول شبه الجزيرة وعرضها ، وإن كان الخلاف لا يزال قائماً بين الباحثين فيما إذا كانت هذه الأشعار قد ظهرت حقاً فى الجاهلية أم فى الاسلام

والذى يهمنا هو أن بين هذه الأشعار طائفة يمكن اعتبارها فى المرتبة الأولى لا فى أدب العرب فحسب . ولكن فى أدب العالم أجمع .

وكان القرآن يمثل المثل الذى كانت شائقه فى الحجاز . والى أن قام الخليفة عمر (بمراجعاته) الرسمية الدقيقة للقرآن . لم يكن هناك أى كتاب فى النحو . كما لم يكن هناك أى قاموس عربى . وكان الفرس أول من ميزوا أنفسهم باستنباط بعض القواعد النحوية من القرآن .

وبعد هذا أخذ الأذكياء فى العالم الاسلامى يحذقون هذا اللسان الصعب . وابتدأ الناس يدرس بعضهم بعضا كل بما حصل من اللغة . ومنذ ذلك الوقت . فيما بين أسبانيا وسمرقند . أخذ الكثير من الشعراء المطبوعين . الذين كانوا من قبل فى حاجة الى أداة يظهرون بها أفكارهم ينظمون الشعر بالعربية ولقد شرعوا أول أمرهم بمحاكاة الأشعار البدوية التى لم يكن لهم بموضوعاتها علم مباشر . ثم أخذوا يطرقون من الموضوعات ما تميل اليه قلوبهم . وما يوافق طبيعتهم وبيئتهم » يتلى »

(١) Zoroastrian (٢) Hindu Literature

موسى بن شاكر

وبنوه الثلاثة

للأستاذ قدرى حافظ طوقان

عضو الجمعية الرياضية بلندن

مستهلهم

ظهر موسى بن شاكر فى عصر المأمون ولمع فى سماء العلم ولاسيما فى الهندسة وانبثق منه ثلاث نجوم : محمد وأحمد وحسن برعوا فى الرياضيات وعلم الهيئة والفلسفة ، وكان لهم فى ذلك مؤلفات نادرة عجيبة . وهؤلاء الأربعة « ممن تناهى فى طلب العلوم القديمة وبذل فيها الرغائب وأتعبوا فيها نفوسهم وأنفدوا الى بلاد الروم من أخرجها اليهم فأحضروا النقلة من الأصقاع والأماكن بالبذل السنى . فأظهروا عجائب الحكمة . وكان الغالب عليهم من العلوم الهندسة والحيل والحركات والموسيقى والنجوم وهو الأقل (١) . . »

ويقال إن موسى مات صغيرا وقد خلف أولاده الثلاثة صغاراً اعتنى بهم المأمون كثيراً . ووصى بهم اسحاق بن ابراهيم المصعبى وأمره بالاهتمام بهم والمحافظة عليهم . وانقطعوا الى العلوم يبحثون عنها فتاصروا فيها واستطاعوا أن يجيدوا أكثرها . فأكبرهم وهو أبو جعفر محمد أجل اخوته عالماً بالهندسة والنجوم والمجسطى ، وكان جماعة للكتب ، ومضى عليه زمن كان مدخوله السنوى أربعمائة ألف دينار (٢) . أما أحمد فقد كان دون أخيه فى العلم إلا صناعة الحيل فقد تعمق فيها . وأجادها وتمكن من الابتكار فيها ، ووافق القدماء المحققين فى هذا العلم مثل (ايرن) . وأما حسن فقد كان متفرداً فى الهندسة . ومع انه لم يقرأ من كتب الهندسة إلا ست مقالات من كتاب اقليدس فى الأصول . فقد حدث نفسه باستخراج مسائل لم يستخرجها أحد من الأولين « كقسمة الزاوية الى ثلاثة أقسام متساوية ، وطرح خطين بين خطين ذوى توال عجيبة . فكان يحللها ويردها الى المسائل الأخرى ولا ينتهى الى آخر أمرها ، لأنها أعيت الأولين (٣) » . وحكى عنه أنه كثيرا ما كان يغرق فى الفكر فى مجلس فيه جماعة فلا يسمع ما يقولون ولا يحسه .

مآثرهم

ثبت أن المأمون أمر بنى موسى بقياس درجة من خط نصف النهار لايجاد محيط الأرض ، وقد أجروا حسابهم ذلك فى سنجار

(١) ابن النديم : الفهرست ص ٣١٨ و ٣١٩

(٢) ابن القفطى : أخبار العلماء بأخبار الحكماء ص ٢٨٧

(٣) [illegible]

كما أجروه ثانية فى الكوفة . ومن توافق الحسابين على المأمون صحة ماجروه القدماء فى هذا الصدد (١) وهم الذين كملوا الزيج المصحح . وحسبوا الحركة المتوسطة للشمس فى السنة الفارسية . وحددوا ميل وسط منطقة البروج المسماة بالاكليتيك فى مرصدهم المبنى على جسر بغداد المتصل بالباب المسمى بالطاق . وعرفوا فيها فروق حساب العرض الأكبر من عروض القمر (٢) وقد عول ابن يونس فى أرصاده الفلكية على ارصادهم . وعمل أحدهم وهو محمد تقويمات لمواضع الكواكب السيارة (٣) . ولأبناء موسى فى الحيل كتاب يعرف بحيل بنى موسى ، وهو عجيب نادر ، يشتمل على كل نادرة وقد يكون هو الكتاب الأول الذى يبحث فى الميكانيك ولقد وقفت عليه فوجدته من أحسن الكتب وأمتعها ، وهو مجلد واحد (٤) ، وهى (أى الحيل) شريفة الأغراض عظيمة الفائدة مشهورة عند الناس (٥) ويحتوى هذا الكتاب على مائة تركيب ميكانيكى عشرون منها ذات قيمة عملية (٦) . وقد كتبوا فى فن الآلات الروحية (٧) وهذا العلم « يتبين فيه كيفية ايجاد الآلات المرتبة على ضرورة عدم الخلاء ونحو ما من آلات الشراب وغيرها ، ومنفعته ارتياض النفس بغرائب هذه الآلات كقدحى العدل والجور و و . . . . . (٨) » وعلى ذكر قدح العدل وقدح الجور يقول كشف الظنون فى الجزء الأول ص ١٣٧ مايلى : « أما الأول (قدح العدل) فهو اناء اذا امتلأ على قدر معين يستقر فيها الشراب ، وان زيد عليها ولو بشىء يسير يصب الماء ويتفرغ الاناء عنه بحيث لا يبقى قطرة . وأما الثانى (قدح الجور) فله مقدار معين ان صب فيه الماء بذلك القدر القليل يثبت ، وان على يثبت أيضاً ، وان كان بين المقدارين يتفرغ الاناء كل ذلك لعدم امكان الخلاء . . . » وأكثر هذه الآلات توضح أنواعا من الحيل العلمية . وهى مبنية على المبادئ الميكانيكية المنسوبة لهيرو الاسكندرى (٩) . وقد اهتموا بنقل أحسن الكتب اليونانية ، حتى أن أحدهم وهو محمد ذهب الى بلاد اليونان ابتغاء الحصول على مخطوطات تبحث فى الرياضيات والفلك (١٠) واستعملوا منحنى نيكوميدس Conchoid فى تقسيم الزاوية الى ثلاثة أقسام متساوية (١١) . واستعملوا الطريقة المعروفة الآن فى انشاء الشكل الاهليلجى (٢) . أما الطريقة فهى أن تفرز دبوسين فى نقطتين وأن تأخذ خيطا طوله ، أكثر من ضعف البعد بين النقطتين . ثم بعد ذلك تربط هذا الخيط من طرفيه وتضعه حول الدبوسين . وتدخل فيه قلم رصاص . عند ادارة القلم يتكون الشكل الاهليلجى . وتسمى النقطتان محترق الاهليلجى أو مؤرتيه . وفى احد مؤلفاتهم فى الهندسة استعملوا القانون المعروف بقانون (هيرون) لمساحة المثلث اذا علم طول كل ضلع من أضلاعه (٣) . ولا يفوتنا أن نذكر أنه نسب الى أبيهم موسى القول بالجاذبية . يدلنا على ذلك ما جاء فى كتاب بسائط علم الفلك للعلامة صروف الذى يقول : « وهذا التفاعل بين الاجرام السماوية الذى يطلق عليه اسم الجاذبية العمومية انتبه له بعض العلماء من قديم الزمان . فأشار اليه بطليموس صاحب كتاب المجسطى حاسباً انه هو الذى يجعل الأجسام تقع على الأرض متجهة نحو مركزها ، وهو الذى يربط كواكب السماء بعضها ببعض . ويقال أن موسى بن شاكر المهندس الذى نشأ فى أوائل القرن الثالث الهجرى انتبه له أيضا وقال به . »(٤)

مؤلفاتهم

كتب بنو موسى فى موضوعات مختلفة : فى الهندسة والحيل والطب والمساحة والمخروطات وعلم الهيئة . وقد أجادوا فى ذلك الى درجة أثارت اعجاب كثير من العلماء ، فمن تآليفهم كتاب بنى موسى فى الغرسطون . وكتاب مساحة الاكر . وكتاب قسمة الزاوية الى ثلاثة أقسام متساوية . ووضع مقدار بين مقدارين لتوالى على قسمة واحدة (٥) ، وكتاب يبحث فى الآلات الحربية (٦) .

ولأحدهم وهو احمد كتاب بين فيه بطريق تعليمى مذهبا هندسيا وهو ليس فى مخارج كرة الكواكب الثابتة كرة تاسعة .

ولحسن : كتاب الشكل المدور وللمستطيل . أما محمد فله كتاب حركة الفلك الأولى . وكتاب الشكل الهندسى . وكتاب الجزء . وكتاب فى أولية العالم ، وكتاب على مائة الكلام . وفى الفهرست ينسب الى محمد كتاب المخروطات ، ولكن كتاب كشف الظنون يقول فى هذا الكتاب مايلى : « . . . وقال أبو موسى شاكر الموجود من هذا الكتاب سبع مقالات وبعض الثامنة ، وهو أربعة أشكال . وترجم الأربع الأول منه احمد بن موسى الحصى . والثلاث الأواخر ثابت بن قرة . . . أصلحه الحسن واحمد بن موسى بن شاكر (٧) . . . »

نابلس — فلسطين　　فتحى حافظ طوقان

(١) ابن خلكان : وفيات الاعيان ج ٢ ص ٨
(٢) سيديو : تاريخ العرب ص ٢١٠
(٣) " " " ص ٢١٠
(٤) ابن خلكان : وفيات الاعيان ج ٢ ص ٧٩
(٥) ابن القفطى — أخبار العلماء بأخبار الحكماء ص ٢٠٨
(٦) كتاب تراث الاسلام Legacy of Islam ص ٣٢١
(٧) الانصارى — ارشاد القاصد ص ١١٣
(٨) " " " ص ١١٣
(٩) كتاب تراث الاسلام ص ٣٢١
(١٠) كاجورى — تاريخ الرياضيات ص ١٠٤

(١) سمث — تاريخ الرياضيات ج ١ ص ١٧١
(٢) " " " ج ١ ص ١٧١
(٣) كاجورى " " ج ١ ص ١٠٤
(٤) صروف : بسائط علم الفلك ص ٢١ و ٢٢
(٥) ابن النديم : الفهرست ص ٣٧٩
(٦) الأنصارى : ارشاد القاصد ص ١١٣
(٧) كاتب جلبى — كشف الظنون ج ٢ ص ١٩٩

طرائف من شعر الشباب

مناجاة غـــدير

للأستاذ محمود الخفيف

مساى غنى الخلوس فوق حرير ... من تسبيح الربيع يصغى حنينا
كنت مثل الغروق عند غدير ... يملأ النفس من غنائه غنا

....

كل ما فى الوجود حلو جميل ... يبعث البشر فى الفؤاد مدى
ونسيم الصباح عذب طيل ... باعث فى الربوع نشراً ذكيا

....

ساد حول الكون لولا غدير ... عقرى الخيال ساعى البيان
تائر هادئ معى صبور ... رائق الحس مستفيض المعانى

....

زاده الصبح والكون رواء ... وكساه الربيع ظلا ظليلا
وحباه الشباب منه مضاء ... فترى الماء دافقاً سلسبيلا

....

ياغدير الصباح هيجت قلبى ... أنت للنفس رحمة وعذاب
لست أدرى وقد ملكت لبى ... أترنمت أم عراك انتحاب؟

....

ياغدير الصباح لحنك عذب ... باعث فى الفؤاد شتى المعانى
ياغدير الصباح هل أنت صب ... تعرف البعد فى الهوى والتدانى؟

....

أى معنى أردت ان فؤادى ... حركته لما تقول شجون
ويح نفسى لقد ملكت ودادى ... فعرفت الخشوع كيف يكون

....

هبه يا أيها الغـــدير فانى ... إن ترنمت أو بكيت سميع
ياغدير الصباح أفصح وزدنى ... انى قلبى بما تقول ولوع

....

ان ترنمت ياغـــدير فحسبى ... من دواعى السرور ذاك الغناء
واذا ما بكيت حركت قلبى ... فتقلبى لكل باك رثاء

....

لست يا أيها الغـــدير بشاكى ... كيف تشكو ولست تعرف ظلما!
لست يا أيها الغـــدير باكى ... كيف تبكى؟ أأنت تعرف هما؟

....

لم تجرب شماتة من عدو ... أو تحمل إساءة من صديق
أو تقاسى العناد بعـــد دنو ... أو تعانى الظنون بعد وثوق

....

لم تسهد بجفوة من حبيب ... أو تعذب بعثيرة وارتياب
أو تفاجأ هفوة من رقيب ... أو تروع نبوة من صحاب

....

لم تصادف تفاخراً من دعى ... أو تبادر بلفظة من جليس
أو تشاهد تطاولا من عى ... أو تجرع اهانة من خسيس

....

لم تخف باغـــدير قط عداءا ... أو تدق باغدير للحزن طعما
أو تقابل لدى الحياة صعابا ... كيف هذا ولست تعرف وهما؟

....

أنت ياأيها الغدير طروب ... ناعم البال لست ترهب رزءا
مطمئن الى الحياة لعـــوب ... لست تدرى عن المنية شيئا

....

ياغدير الصباح زدنى غناء ... واملأ القلب من غنائك وجدا
كل لحن سواك غاد هباء ... ياغديرا لقد وعيتك وعيا

فى الليـــل

اسكتى ياطيور! لا تملأى الليل ... غناء بصوتك الخـــلاب
وقفى يا غصون لا تناغى ... بحديث الهوى وهمس العتاب
طاب لى مجلسى بعيداً عن الناس ... از ، فى نجوة من الأصحاب
فتنتنى سكينة الليل ، والليـ ... ـل سكون يطـــير بالألباب
واحتوانى الظلام حتى كانى ... قطعة منه فى سواد اهاب
وكأن السماء صحراء خرسا ... ء بدا نجمها كومض السراب
وكأن الليل البهيم عباب ... وأنا سابح بهـــذا العباب
بين شطين من ظلام قد امتـــدا امتداد العصور والاحقاب

* * *

نام زهر الرياض فى سرر العشـ ... ـب ونامت على الضفوح الروابى
وسرت روح شاعر يعبد الحـ ... ـن فرفت فى الليل بين السحاب
انما الليل الذى يعرف الليـ ... ـل وما فيـــه من معانى عذاب
قدس الليل ، انه هيكل السحـ ... ـر ووحى الهوى وستر الشباب

أمين عزت الهجين

الله وراء كل شىء

شفيت نفسه فضلت هداها ... وتجلى الهها فى هواها
زعمت أن طيها أزلى ... كذبتها وحق من سواها
ولئام النفوس ان تلف مولا ... ها حفيا بها عصت مولاها
صلة للعقول لم تك شيئا ... ثم كانت فأنكرت من براها!
قف خيال السماء ليلا وسائل ... سفن السيرات من أجراها؟
سفن موجها الأثير ولا يع ... لم الا ربانها مرساها
جاوزت فى العيون حد التقصى ... فتراها ولا تكاد تراها

ان تطالع أبصارنا مبتداها قال الله ربها منتهاها

....

واسأل الوردة اكتست كل لون من كساها ومن حباها شذاها ؟
ألبستها الأوراق كف قدير فأرتنا لثم الشفاء الشفاها
ابرزتها عذراء من خدر كم في حياء تورد وجناها
ردعتها مليكة الزهر لما ألبستها الرياض تاج نداها
فأصخ للجواب منها تجده باسم عن حاكها تحرك فاها

....

شجرات في الروض مشتبهات شهوة الآكلين فاطعم جناها
ذقت هذي فما أمر جناها ثم هذي فقلت ما أحلاها !
ما اختلاف الطعوم والماء فيها واحد ، والتراب أصل غذاها ؟
صاغها مثلما أراد بديع قد نفينا عن ذاته الأشباها

....

ثم سائل بلابل الأيك تشدو فهز الأملاك لحن غناها
وتناجي القلوب وهي تغني فتذيب القلوب في نجواها
من يري هذه الخناجر عيدا نا وأنشا قيثارة في لهاها ؟
انه مبدع كما الطير ريشاً وحباها في الجو ملكا وجاها

....

هذه النحلة الدقيقة خلقاً كيف تسعى وكيف تبني قراها؟
هذه النحلة اكتست حجرات من طلى شهدها وسل خلاها ؟
قل لشمس النهار من جلاها واسأل الارض من أدار رحاها ؟
واسأل الريح كيف تزجي سحابا واسأل السحب كيف يهمي حياها
ثم سائل بروقها شرعات هل تضج الرعود خوف أذاها
واسأل الدوح كيف شب لظاه واسأل الراسيات من أرساها
مدها في الثرى وأعلى ذراها قادر في غد يحل حباها

....

ضل في التيه من أبى الرشد تيهاً يا أخا العقل لا تكن تياها
يجهل العقل كنهه وهو عقل وجدير أن يدرك الأكناها
قل له ما الاثير وهو فضاء ان يحمل رسالة أداها ؟
ثم ما الكهرباء وهي قريب منه وهو البعيد عن معناها ؟
قل له ما ارتباط جسم بروح ضل فيها دراسة وا كتناها ؟
هل أعنا الأعصاب حين أصابت أذناها واذ رنت مقلتاها ؟
أو أعنا للقلب نبضا ضعيفا تستمد الأبدان منه قراها
أو أعنا الأنفاس مطردات وهي في النوم لا تني رتاها
ان خلف العقول ربا حكيما أودع الكائنات سر بقاها

عبد الغني المنشاوي
المدرس بالمدرسة الخديوية

ابن خلدون في مصر

« بقية المنشور على صفحة ١٦ »

قد شهده جمهرة من الأكابر أرسلهم السلطان لشهوده : والتقرا حول المؤرخ . والقى ابن خلدون في ذلك المحفل خطابا بليغاً ، يحرص على ايراده بنصه وقد تكلم فيه بعد الديباجة عن فضل العلماء في شد أزر الدولة الاسلامية . وعن تغلب الدول . ثم أشاد بما لدول السلاطين المصرية من فضل في نصرة الاسلام . واعزازه . ومن همم في انشاء المساجد والمدارس . ورعاية العلم والعلماء والقضاة . ثم دعا للملك الظاهر . وأشاد بعزمه وعدله وعقله : وعطف بعدئذ على نفسه . وما أولاه من شرف المنصب في تلك العبارة الشعرية : « ولما سبحت في اللجج الأزرق . وخطوت من أفق المغرب الى أفق المشرق . حيث نهر النهار ينصب من صفحة المشرق ، وشجرة الملك التي اعتز بها الاسلام تهتز في دوحه المعرق ، وأزهار الفنون يسقط عليها من غصنه المورق . أولوني عناية وتشريفاً . وغمروني احسانا ومعروفا . واوسعوا همتي إيضاحا وتكريمي تعريفاً . ثم ألهموني القيام بوظيفة السادة المالكية بهذا الوقف الشريف . . . الخ »[1]

التقل مرجع . للبحث بقية .

(١) لم يرد وصف هذا المجلس : ولا نص هذه الخطبة في حصول ، التعريف ، المطبوعة الملحقة بتاريخ ابن خلدون (كتاب التعريف) . ولكنهما وردا في نسخة خطية أتم من التعريف تحفظ بدار الكتب المصرية (رقم ١٠٩ أم تاريخ) — (ص ١٠٨ — ١١٠) . ونسخة التعريف المتداولة تقف في ترجمة المؤرخ والتعريف به عند مستهل سنة ٧٩٧ هـ (راجع كتاب النير — طبعة بولاق ج ٧ ص ١٤٦٢) حيث يقتم ابن خلدون فصول التعريف عن نفسه . ولكن نسخة دار الكتب الخطية التي ذكر في نهايتها إنها نقلت عن نسخة أصلية المؤلف تحتوي بعد ذلك على عدة فصول أخرى عن حياة ابن خلدون في مصر . كتوليه بالتعاب عن ولايته لوظائف التدريس والقضاء . وعن سببه لمقد الملاقق بين سلطان مصر وسلاطين المغرب . وعن بعض حوادث مصر الداخلية يومئذ ثم سفره الى الشام في ركب الملك الناصر فرج . ولقائه ملك التتار تيمورلنك في دمشق وما دار بينهما من الاحاديث ثم عوده الى مصر . ويشتمل ذلك كله تحليلات فلسفية واجتماعية لبعض الظواهر والحوادث السياسية على طريقته في المقدمة . ويصل ابن خلدون في رواية حوادث حياته هذه حتى سنة ٨٠٨ هـ . أعني قبل وفاته بنحو عام فقط . وتشتمل هذه الفصول في النسخة الخطية المذكورة نحو أربعين صفحة كبيرة (من ص ١٠٧ حتى النهاية) . وهذه النسخة هي التي نشير اليها فيما بعد .

في الأدب الشرقي

نظرات في الأدب الفارسي

منذ نشأته الى إغارة التتار

للدكتور عبد الوهاب عزام

مهما تختلف الآراء في تاريخ أقدم آثارة من الأدب الفارسي الحديث فان مؤرخا يستطيع أن يقول أن ظهور هذا الأدب صحب ظهور الامارات الوطنية في إيران ، فهذه الامارات بعثت الأمل في نفوس الفرس وأتاحت لهم فرصة يستطيعون فيها التقرب بالمدائح وغيرها الى أمراء يفهمون عنهم ، ويعجبون بهم ، ويسرهم أن تحيا آداب لغتهم وآثار آبائهم .

وأمر آخر يسترعي نظر مؤرخ الآداب الفارسية ، هو ظهور هذه الآداب في الديار النائية عن البلاد العربية وعن بغداد حاضرة الخلافة والمدنية الاسلامية . اذ كانت هذه الديار أبعد من سلطان الأدب العربي الذي كان ترجمان حضارة الاسلام كلها حقبا طويلة . ثم استقلال الامارات كذلك يبدأ في الأقطار النائية ، وانما تنقص الارض من أطرافها . ومن أجل ذلك أتيح لخراسان البعيدة مهد أول دولة فارسية عظيمة في العصر الاسلامي أن تكون منبعث الأدب الفارسي الحديث . ولم تنل هذا الشرف فارس مهد الدول القديمة على تبريزها في العلم وتقدمها على خراسان فيه . حتى يقول ابو أحمد الكاتب كاتب الأمير اسماعيل بن احمد الساماني :

لا تعجبن لعراق رأيت له ... بحرا من العلم أو كنزا من الأدب
واعجب لمن بلاد الجهل منشؤه ... إن كان يفرق بين الرأس والذنب

يريد بلاد الجهل ما وراء النهر وجهات خراسان .

ولى المأمون طاهر بن الحسين خراسان ثم جعلها ولاية لذريته فاستمروا يلونها حتى سنة ٢٥٩ نحو ٥٠ عاما . ولكنها كانت امارة صغيرة قصيرة المدة . وكانت الأسباب لما تتهيأ لانبعاث الأدب الفارسي . ثم بنو طاهر لم يعنوا بالأدب الفارسي . وروى أن رجلا أهدى كتابا الى عبد الله بن طاهر وهو في نيسابور فسأله ابن طاهر ما هذا ؟ قال قصة (رامق وعذراء) التي ألفها بعض الحكماء للملك أنوشروان . فقال الأمير : نحن قوم نقرأ القرآن ولسنا في حاجة الى غير القرآن والحديث . فالقوا وهذه الكتب التي ألفها المجوس ؟ ثم أمر فألقي الكتاب في الماء . وأمر أن يحرق كل كتاب في ولايته بلغة المجوس . ويقول عوفي عن آل طاهر : أنهم لم يكن لهم اعتناء في لغة الفرس .

وفي سنة ٢٤٧ هـ سنة موت المتوكل ظهر في الشرق يعقوب بن الليث الصفار وهزم جند الخليفة أول الأمر وقال — كما يروى نظام الملك — إنه يريد خلع الخليفة ، وكان شجيا فيما يقال . وخلفه أخوه عمرو الى أن استنجد الخليفة المعتمد بني سامان فهزموه وأزالوا دولته .

والفرس يرون في يعقوب بطلا فارسيا لأنه أول ثائر على الخلفاء . أقام سلطانه على رغمهم أكثر من أربعين عاما . وقد سوغت لهم هذه العقيدة أن نسبوا الى طفل ليعقوب أنه نطق بأول بيت من الشعر الفارسي الحديث ، وفي الحق أن بلاد الفرس لم تعد الى حكم الخلفاء الحقيقي بعد ثورة يعقوب .

ولكن أول دولة فارسية عظيمة لها أثر يذكر في الأدب الفارسي كانت الدولة السامانية . والسامانيون ينتسبون الى بهرام جوبين أحد أعيان الفرس الذي ثار أيام الساسانيين على كسرى برويز ، والبيروني يؤيد هذه النسبة . وقد بعثت الآداب الفارسية مع هذه الدولة — فيما نعلم —

وبينما كان السامانيون متسلطين في خراسان وما وراء النهر ظهر بنو بويه وعظم سلطانهم حتى استولوا على بغداد سنة ٣٣٤ ، وسافروا نسبهم إلى بهرام كور أحد ملوك الساسانيين ؛ وما زالوا يصرفون الأمور حتى أذيل منهم للغزنوية ثم للسلاجقة .

ظهرت دولة بني سبكتكين في غزنة وأذيل لهم من سادتهم السامانيين أو — كما يقول بديع الزمان

أظلت شمس محمود ... على أنجم سامان

وسبكتكين تركي لا فارسي ، ولكنه مكن لنصه في بلاد الفرس . وكان لدولته شأن عظيم في آدابهم . وجاء السلاجقة فنسخوا كل هذه الدول . وكان لهم من السلطان وبسطة الملك ما لم يتح لدولة قبلهم من غير الخلفاء : وكان مع هؤلاء أو بعدهم دول ذات شأن : منها

الدولة الزيارية في طبرستان التي منها شمس المعالي قابوس بن وشمكير وابنه منوجهر فلك المعالي وحفيده كيكاوس عنصر المعالي، ودولة ملوك خوارزم الصغيرة التي قضى عليها محمود وملوك خوارزم العظام الذين تسلطوا على معظم ايران قرناً وربع قرن والذين كانوا سبباً في إغارة التتار وكانوا أول ملكهم، والدولة الغورية التي قضت على الغزنويين في أفغانستان

هذه هي الدول التي صرفت أمور الفرس منذ القرن الرابع الهجري. ويرى منها أن الفرس لم يفلحوا في إقامة دولة عظيمة تضم أرجاء بلادهم، وإنما كان السلطان الشامل للدولتين تركيتين الغزنوية والسلاجقة، وما عرفنا أن ثورات فارسية عظيمة حاولت التخلص من هاتين الدولتين. وهذه مسألة جديرة أن تغير آراء الذين يريدون تفسير كل حركة في ايران في تلك القرون بالعصبية الفارسية.

* * *

الآن نرجع الى الأدب الفارسي نراقب منشأه ونتعقب تطوره منذ بدأ الى عصر التتار؛ فاما ما بعد التتار فنرجي الكلام فيه إلى مقال آخر.

انا لا نعرف شيئا عن الشعر الفارسي قبل الاسلام حتى ليظن أن الفرس لم يكن لهم منه حظ كبير، ولأمر ما نسب بعض كتاب الفرس أول شعر فارسي الى بهرام جور، وقالوا: انه أخذ الشعر من العرب اذ تربى في الحيرة. يذكر هذا محمد عوفي في لباب الألباب وشمس قيس في كتاب المعجم، ويزيد الأخير أنه قرأ في بعض الكتب الفارسية أن علماء عصر بهرام لم يستجيزوا منه إلا قول الشعر، وأن آذرباد بن زرادستان الحكيم بالغ في نصحه ليترك الشعر تنزها عن معايبه؛ ثم يقول إن بهرام أنصح ومنع أولاده وذوي قرباه أن يقرضوا الشعر. ثم يقول: من أجل هذا كانت مدائح باربد وأغانيه عند كسرى برويز طها مشورة لا نظم فيها.

ويقول ابن قتيبة:

«وللعرب شعر لا يشركها أحد من الأمم الأعاجم فيه على الأوزان والأعاريض والقوافي والتشبيه ووصف الديار والآثار، والجبال والرمال والفلوات وسرى الليل، والنجوم. وإنما كانت أشعار العجم وأغانيهم في مطلق من الكلام «منثور» ثم سمع بعد قوم منهم أشعار العرب وفهموا الوزن والعروض فتكلفوا مثل ذلك في الفارسية وشبهوه بالعربية.»

وأما في العصر الاسلامي فلا ريب أن الشعراء الذين يعرفهم تاريخ الأدب لا يتقدمون العصر السامانى. غير أن في كتب الأدب الفارسي روايات عن شعر قيل قبل هذا العهد، وهي على علاتها لا تخلو من دلالة على أدب فارسي أقدم مما نعرف عسى أن يبينه التاريخ يوما.

يقول محمد عوفي معللا ظهور الشعر الفارسي الحديث ما يأتي مترجما مختصراً: «حتى اذا سطعت شمس الملة الحنيفية على بلاد العجم جاور ذوو الطباع اللطيفة من الفرس فضلاء العرب واقتبسوا من أنوارهم ووقفوا على أساليبهم، اطلعوا على دقائق البحور والدوائر وتعلموا الوزن والقافية والردف والروي والاسطار والاسناد والأركان والفواصل. ثم نسجوا على هذا المنوال.

ثم يروي أسانا أربعة لشاعر اسمه عباس مدح بها المأمون في مرو سنة ١٩٣ منها:

كس برين منوال بيش أرمن جنين شعرى نكفت
مر - زبان پارسى را هست تا اين نوع بن
لبك زان كفتم من اين مدحت ترا تا أين لعت
كيرد أز مدح وثناء حضرت تو زيب وزين

وترجمتها:

ما قال أحد قبلي شعراً كهذا. وما كان للسان الفارسي عهد به. وانما نظمت لك هذا المديح لتزدان هذه اللغة بمدحك والثناء عليك.

فأعطاه المأمون ألف دينار عينا، وبالغ في اكرامه — يستمر عوفي فيقول: «ولم ينظم الشعر الفارسي أحد بعده حتى كانت نوبة آل طاهر وآل الليث فظهر شعراء قليلون، فلما كانت دولة السامانيين ارتفع علم البلاغة، وظهر كبار الشعراء».

ويروي شمس قيس أن أول من قال الشعر الفارسي أبو حفص السغدي من سغد سمرقند وكان حاذقا في الموسيقى، وقد ذكره أبو نصر الفارابي وصور آلاته الموسيقية وقد عاش حتى سنة ٣٠٠ وينسب اليه هذا البيت:

آهوى كوهى دردشت جكونه دودا؟
جوندار ديار ى يار جكونه رودا؟

«كيف يعد وهذا الظبي الجبلي في الصحراء؟، انه لا حبيب له فكيف يسير بغير حبيب؟»

فاما رواية عباس المروزي فان المؤرخ الناقد يرتاب فيها لأن غريبا ان يبدأ الشعر الفارسي بهذا الأسلوب المتين ثم يصمت الشعراء أكثر من مائة سنة لا يؤثر عنهم شيء. وأما رواية السغدي فراجعة الى العصر الذي بدأ فيه الشعر الفارسي وسجل لنا التاريخ بعض شعرائه.

ومهما يكن من شيء فاتفاق مؤرخي الآداب على أن أول شاعر فارسي عظيم هو أبو جعفر الرودكي شاعر نصر بن أحمد السامانى — الذي يسميه معروفي البلخي (سلطان شاعران) ويقول فيه البلعمي: أنه لا نظير له بين العرب والعجم، ويعترف الدقيقي والعنصري بتقدمه.

«يتبع»

الادب اليـــابانى

للأستاذ أحمد الشنتناوى

كانت اليابان إلى عهد قريب محجوبة عن انظار العالم المتمدين بحجب كثيفة لايكاد المرء يتبين ماجرى وراءها بين أبناء تلك الأمة العظيمة من عادات وتقاليد. وكان الأدب الياباني نوع خاص من أغمض مظاهر الحضارة اليابانية أمام الباحث. ويرجع ذلك إلى صعوبة اللغة اليابانية وغرابة أحرفها الهجائية وعدم إقبال الأدباء والعلماء على تعلمها. مع أن الآداب اليابانية غنية فى مادتها متنوعة فى أبوابها، وتعد بحق بين الآداب العالمية الرائعة

وليس هناك أمة من الأمم تكون آدابها جزءا هاما من تاريخها مثل أمة اليابان. فأفراد الشعب هناك على اختلاف طبقاتهم يتذوقون الشعر ويطربون لموسيقاه. بل هم شعراء بسليقتهم لافرق فى ذلك بين النساء والرجال: فالأمة كلها تشترك فى مهرجان الشعر الذى يقيمه الامبراطور كل عام. فيأخذ كل ياباني فى إنشاد أطيب ماجادت به قريحته. ويذكرون أن الامبراطور «ميدى» Meidi وهو جدمكادو اليابان الحالى كان يشجع هذه المهرجانات الشعرية. فيخصص الجوائز الثمينة للفائزين. وقد ألف هو نحو مائة ألف مقطوعة شعرية.

أما شغف الياباني بباقى فروع الأدب فلايقل عن شغفه بالشعر. لهذا كانت الآداب اليابانية غنية فى مادتها رائعة فى أسلوبها انسانية فى معانيها. ولكن تلك الآداب العالية لم تتخط حدود اليابان الجغرافية لصعوبة اللغة التى كتبت بها. ثم زادمن صعوبة تلك اللغة دقة المعانى وعمق الأفكار التى حملها اياها اليابانيون. والتى لاتصدر الا من أبناء الشرق الصميمين فى مدنيتهم الشرقية. ويكفى أن نقول ان كلمة «امرأة» لها فى اللغة اليابانية مايزيد على أربعة وعشرين لفظا مرادفا. كل لفظ يستعمل فى حالة معينة وظروف خاصة حسب مكانة المرأة المخاطبة الاجتماعية أو الشخصية. أودرجة الاتصال بها. كذلك لفظة «أنت» لها مايقرب من اثنى عشر مرادفا: وهذا التعدد فى الألفاظ يدلنا على مقدار الدقة التى يتوخاها الياباني فى تعبيراته الاجتماعية والأدبية. وليس هذا فى نظرنا دليلا على رقى اللغة أوغناها فقط. انما يدل كذلك على الشعور الدقيق والحساسية الراقية، والآداب العالية هى فى لبها وجوهرها احساس دقيق وشعور متدفق.

واذا كان فن التصوير الياباني له أثر واضح على الآثار الأوربية فاننا لم نسمع قط أن الآداب الغربية متأثرة بالآداب اليابانية. ولم يمنع هذا أن يكون العكس صحيحا. فالأدب الياباني غاص بالتراجم العديدة لكثير من الآداب الأوربية العالمية. فجميع المؤلفات القيمة من انجليزية وفرنسية وألمانية وروسية نقلت الى اللغة اليابانية. وهذا دليل واضح على تعلق هذا الشعب الناهض بالآداب على اختلاف منابعها.

والعصر الذهبى للآداب اليابانية الكلاسيكية هو عصر «هايين» Heian ٧٨٤ - ١١٨٦ الذى انتشر فيه الأدب الياباني وطبعت فيه عدة قصص غرامية وتاريخية. كما أنه لم يخل من العشرات الأدبية الانتقادية. ولعل أهم مايلفت النظر فى ذلك العصر هو ظهور أديبين يابانيين شهيرين وهما «موراساكى» Murasaki و «سى» Sei و موراساكى اسم ياباني معناه زهرة البنفسج وصاحبته أديبة فى أسلوبها فخامة وخلابة وفلسفة لينة بينما «سى» ومعناها الدر تمتاز بشعورها الفياض وأسلوبها السهل الممتنع. وأشهر قصة لموراساكى هى قصتها المسماة غنى Ghénsi وهى وصف محكم وصورة طبق الأصل وملاحظات دقيقة مدهشة عن الحياة فى البلاط الياباني فى القرن الحادى عشر. وهى كثيرة الشبه بالحياة فى بلاط لويس الرابع عشر. وقد اتخذت لها بطلا سمته «غنى» وهو عبارة عن دون جوان آخر أى مخلوق حريكل معنى الكلمة. يأتى مايشاء من الأفعال دون النظر اذا كان مايأتيه يتمشى مع الاعتبارات الدينية أو الانسانية أو الاجتماعية أولا يتمشى. انما كل همه ارضاء شهواته وملاذه. فكانت له عدة مخاطرات غرامية. وهذه القصة تعطيك صورة واضحة صادقة للحياة اليابانية الاجتماعية فى عهد «موراساكى». ولاتسل عن العذوبة والروعة التى كتبت بها الحوادث الغرامية التى خاض غمارها «غنى» وكل ذلك فى أدب وحشمة وتورع.

أما الأديبة الأخرى «سى» فكانت معاصرة لموراساكى وتعيش معها فى البلاط الياباني. ولقد عرفت بالكبرياء والصلابة فى رأيها. وكتاباتها ملأى بالنقد والتجريح. كذلك كانت لها قدرة على وصف الطبيعة وما بها من حيوان وطير وصفا بليغا دقيقا

ولنذكر هنا قطعة لها تصور فى وصف فصول السنة الأربعة قالت:

ان الذى يسحرنى فى الربيع هو الفجر يتبادى فى مشيته على قمم الجبال. بينما كل شىء يضىء رويدا رويدا. وقطع السحاب اللازوردية تسبح فى الفضاء جماعات جماعات.....

أما فى الصيف فالذى يسحرنى فيه هو الليل... يجىء منه القمر المنير..! وتسحرنى الليلة الليلاء. حيث يطير فى جوها الحالك الحباحب المشعة هنا وهنالك.. واذا تساقط المطر فى تلك الليلة فانه يزيد فى جمالها وسحرها.

والذى يسحرنى فى الخريف هو الماء عند ما ترقد الشمس فى مغربها مرسلة سهامها الذهبية نحو قمم الجبال العالية . فتسرع الغربان نحو أعشاشها تطير جماعات مثنى وثلاث ورباع ! حقا إنه منظر فيه حزن وجمال . . . . وما أجمل المنظر وأبهاه اذ لاح فى الأفق البعيد سرب من الطيور البرية الصغيرة ! . . بعد ذلك تختفى الشمس وتزأر الرياح وتخرج الهوام والحشرات من مخابئها صائحة مهللة . كل ذلك مما يهيج فى النفس المالذيذا . . . والذى يسحرنى فى الشتاء هو سقوط الثلج اذا ما تنفس الصباح ، فتكتسى منه الأرض حلة بيضاء ناصعة . وعندما يقر البرد توقد النيران للتدفئة . حتى اذا ما انتصف النهار وخمدت وطأة البرد ترى جمرات النار وقد تحولت الى رماد أبيض . وذلك هو الحزن بعينه . . . ! »

وفى القرون الأربعة التى أعقبت عصر (هايين) نجد القصة والشعر اليابانى لا ينتقلان من مكانهما بعيدا . الا أننا نجد هما يتأثران كثيرا بالفلسفة البوذية ، فينمو الأدب التاريخى ويولد الأدب المسرحى فى اليابان . وأبطاله « كابوكى » Kabouki و « نو » No . وفى عام ١٦٤٢ يظهر فى سماء الأدب اليابانى « سيكاكو » Saikakou وهو أستاذ الأدب الواقعى فى اليابان ، وقد خلف هذا الأديب مؤلفات وافرة وتلاميذ كثيرين وكانت الآداب اليابانية قبل عهده تعد فى جملتها آدابا أرستقراطية كتبت لخواص الناس وأهل الثقافة منهم ، فأتى سيكاكو وجعل من الأدب اليابانى أداة للافصاح عن مشاعر الانسانية وعواطفها وهمومها وأحزانها أى تلك النواحى العامة التى قد يشعر بها رجل الطريق قبل أن يشعر بها رب الجاه والسلطان . وهو فى وصفه وتحليله لتلك العواطف الانسانية راعى الدقة التى يلاحظها الباحث فى وصفه لزرعه أو عالم الحيوان فى دراسته لحشرة من الحشرات . وتظهر هذه المقدرة بأجلى بيان فى قصته المسماة « حياة امرأة » وصف فيها سيكاكو كيف تكون حياة المرأة الخليعة المشهورة التى لا يهمها من عيشتها الا اشباع شهواتها وقضاء ملاذها ، ولكن حياة الدعارة والمجون نهايتها دائما محزنة مبكية فنرى فى نهاية القصة تلك المرأة التى كانت بالأمس زينة المجالس وبهجة الناظرين تهجر العالم بعد أن عضها البؤس بنابه ، وتنزوى بين منعطفات الجبال فى كوخ حقير من القش والخرق البالية . . . !

ولعل تيكاماتسو Tikamtsou أشهر كاتب درامى فى اليابان . فهو يعد بحق شكسبير الأدب اليابانى . ولكنه اقتصر فى مؤلفاته على الاشادة بذكر العواطف الانسانية العالية وتحليلها كالحب والشرف والاخلاص والعفاف . ويعده البعض بين زمرة الشعراء لا لرواياته كتبها كلها نظما ولكننا لا ننسى أن معظم كتاب اليابان الأقدمين كتبوا آثارهم شعرا لأنهم عشقوا الشعر وطربوا لأنغامه الموسيقية فألهاهم ذلك عن كل شىء آخر . « وتيكاماتسو » هذا خالق الدرامة اليابانية التى تصف الحياة اليومية وتتغلغل فى أعماقها وتكشف عما بها من محاسن ومعايب . وتعبر عما تختلج به قلوب الآلاف من المظلومين والمساكين

ظل الحال على هذا المنوال حتى الثورة اليابانية التى شب لظاها عام ١٨٦٧ والتى يرجع سببها الى الروح الغربية التى بدأت تتسرب الى بلاد اليابان الهادئة المطمئنة حوالى ذلك الوقت . فتأثرت الآداب اليابانية كما تأثر الفن اليابانى . كذلك لم يسلم من هذا التيار الجديد الحياة الاجتماعية نفسها . فتغير سلوك الفرد ونظام الأسرة . حتى المساكن وأنواع الأطعمة دخل عليها شىء كثير من التعديل والتغيير . وغذى المجتمع اليابانى شىء آخر جديد مغاير لليابان إبان عهد هايين أوسيكا كو . وبدأ الشعب اليابانى يقف على مسرح الحياة بنفسه بعد أن كان الى هذا العهد مشاهدا متفرجا لما يقع بين ظهرانيه . اذ بعد أن هدأ تيار الثورة وخمدت الحروب الأهلية حوالى سنة ١٨٨٠ ظهر فى الأفق شعاع جديد لامع يبشر بمستقبل أدبى جديد لم تلبث أن أشرقت فى أثره شمس الآداب اليابانية الحديثة وهى موضوع الكلام فى مقالنا الثانى ان شاء الله ؟

oooooooooo

حافظ وشوقى

للدكتور طه حسين

ظهر هذا الكتاب القيم حديثاً وهو مجموعة ما أنشأه الدكتور فى هذا الموضوع الطريف . طبع طبعاً حسناً على ورق صقيل فى زهاء ٢٥٠ صفحة . يباع فى المكتبة التجارية لصاحبها مصطفى محمد . وثمنه ١٠ قروش .

oooooooooo

فى الصيف

للدكتور طه حسين

يبيعه شباب القرش لفائدة مشروعهم

اطلبه من جمعية القرش ٤٥ شارع عابدين تليفون ٥٧٢١٦

ثمن النسخة ١٠ قروش وللجملة ثمن خاص

في الأدب الغربي

قصة فيلسوف عاشق

الدكتور طه حسين

لا أعلم أن الفلسفة تحظر الحب على أهلها . بل الذي أعلمه أن الفلسفة حب كلها . وليس اسمها إلا لفظاً من ألفاظ الحب . ولكن هذا الحب اذا اعتقل شغله عن كل شيء . واستأثر بكل ما فيه من قوة وعاطفة وهوى . ولم يدع من ذلك للحياة اليومية العاملة إلا شيئاً يسيراً جدا .

فالفلسفة حب الحكمة . وهذه الحكمة شديدة الغيرة . شديدة الأثرة . لا تحب الشركة ولا ترضاها . ولا تسمح لعشاقها بأن يصفوا بودهم شيئاً أو أحداً غيرها . فمن فعل ذلك أو شيئاً منه . فليس هو من الحكمة في شيء : وانما هو رجل مثلك ومثلي يغشى الأندية . ويضطرب في الشوارع . ويعيش مع الناس . وليس له حظ من المدنية الفاضلة التي يكنها ويسيطر عليها عشاق الحكمة وحدهم .

لذلك كان أمر هذا الفيلسوف الذي أحدثك عنه عجباً من العجب . وفناً من هذه الفنون النادرة التي لا يظفر بها المؤرخون والقصاص إلا في مشقة وعسر . وإلا على أن تفرق بينها القرون الطويلة والعصور البعيدة . والذي أعرفه أن التاريخ لم يظفر قبل فيلسوفنا هذا العظيم بعاشق قد دلهته الحكمة . وعبث بلبه جمال إلاهتها العليا : ولكنه على ذلك استطاع أن يشغف بالاهة أخرى يشركها مع هذه الالاهة التي كان يصورها اليونان في صورة أثينا ، تلك التي خرجت من رأس أبيها زوس ، تامة الخلق ، مكتملة الشباب ، فيها جمال فتان : ولكن فتنته تخلب بقوتها لا برقتها .

لم يعرف التاريخ عاشقاً من عشاق أثينا استطاع كما استطاع فيلسوفنا العظيم ، أن يشرك معها امرأة من النساء في حبه وهيامه ، وأن يختصها من هذا الحب والهيام بمثل ما اختص به إلاهة الحكمة نفسها . وأن ينتهي به الأمر الى أن يخلط الهة زوس بابنة بابيس . ويتحد منهما شخصاً واحداً يحبه ويقدسه . ويصوغ له دستوراً خاصاً . ويحاول أن يبسط سلطان هذا الدين على الانسانية كلها . أو على الانسانة المسيحية على أقل تقدير

أظنك قد عرفت هذا الفيلسوف . هو (أغست كونت) مؤسس الفلسفة الوضعية . وواضع علم الاجتماع . وصاحب السلطان العظيم على العقل الفرنسي ثم الأوروبي . ثم الامريكي . عصراً طويلا من القرن التاسع عشر . وأظنك قد عرفت هذه المرأة التي زاحمت الفلسفة في قلب (أغست كونت) فكادت تغلبها عليه ، أو غلبتها عليه بالفعل : ثم أصبحت إلاهة للفيلسوف يعبدها كما يعبد النصارى المسيح . وكما كان الوثنيون من اليونان يعبدون أثينا أو أرتميس . ثم أصبحت إلاهة لجماعة من تلاميذ الفيلسوف المتفرقين في أطراف الأرض . ثم أقيم لها معبد لايزال يحج اليه الى الآن في باريس ، وأقيمت لها معابد متفرقة في أمريكا الجنوبية . حيث لايزال للفيلسوف أتباع يشايعونه في القسم المتطرف من فلسفته .

هذه المرأة هي (كلوتلد دي فو) وأظنك تطمئن الآن وقد سمعت هذين الاسمين ، الى أني لا أخترع ولا أتبع الخيال . ولا أضع قصة : وانما أكتب فصلا من فصول التاريخ . وليس من الضروري أن يلجأ الكاتب الى الخيال والاختراع ، ليستطيع أن يمتع قراءه . وأن يؤثر في نفوسهم ويثير فيها هذه العواطف الحادة المختلفة التي تعبث بها حين تحس لذة أو ألما . وحين تجد حبا أو بغضا . وحين تشعر بحزن أو سرور . فقد تكون الحقائق الواقعة أبرع وأروع من أحسن القصص الخيالية وأبدعها . ولكني في حاجة الى أن أقدم اليك شخص هذين العاشقين قبل أن أحدثك عن عشقهما . وأقص عليك ما كان بينهما من غرام .

نشأ أغست كونت مع القرن التاسع عشر . ولم يكد

يتوسط العقد الثاني من عمره حتى ظهر تفوقه في العلوم الرياضية، ولم تكد تتقدم به السن قليلا حتى عرف له هذا التفوق. وإذا هو حجة في هذه العلوم. وإذا هو لا يقف عندها ولا يقتصر عليها؛ وإنما يفكر في الصلة بينها وبين بقية أنواع المعرفة الإنسانية من جهة. ويفكر من جهة أخرى في الحياة الأوربية بعد الثورة والإمبراطورية. فيحاول أن يضع ترتيبا جديدا للعلوم، ويوفق الى ما يريد. ويحاول أن يجد نظاما جديدا تقوم عليه الحياة الأوربية. فيوفق أيضا. ويصبح لهذين النوعين من التوفيق صاحب الفلسفة الوضعية ومؤسس علم الاجتماع.

ولكن فلسفته الوضعية بعد، كانت حديثة ثائرة لا تستأثر بالقلوب استئثاراً مطلقا. ولا تقطع على أهلها سبيل الحياة. فسمحت لعاشقها (أغست كونت) أن يعيش كما يعيش الناس. وأن يحب كما يحبون. فعاش وأحب. ولكن أي عيشة وأي حب؟ تركت الفلسفة قلبه حرا، وشغلت عقله كله. فاختار في الحب بعينه وقلبه. ولم يختر بعقله. فبئس ما اختار! اختار امرأة جشمته الأهوال. وعلمته كيف تحتمل الآلام. وكيف يتجرع الانسان مرارة الغيظ: كانت هلوكا فاجرة. وخيل الى (أغست كونت) أنها نقية طاهرة، فأحبها وأظهرت له الحب، وخطبها فقبلت الخطبة، وتزوجها فقبلت الزواج. وما هو إلا وقت قصير حتى تبين من أمرها ما كره. فخاصمها وقاومته، وأنذرها فازدرته، وحاول أن يعاقبها فثارت به. وصبر الرجل وصابر حتى جن. وإذا هو يلقي نفسه في النار. وإذا الشرطة تستنقذه وتدفعه الى المستشفى، فيقيم مع المجانين حينا ثم يفيق فيستأنف الفلسفة، ويستأنف التعليم، ويستأنف الحب والعذاب. ويجن مرة أخرى. ويفيق وتنقطع الصلة بينه وبين امرأته في غير طلاق، لأن القوانين الفرنسية لم تكن تبيح الطلاق يومئذ. فنشاطه إذاً موقوف على الفلسفة والتعليم.

في سنة ١٨٤٠ كان فيلسوفنا ممتحناً في مدرسة الهندسة Polytechnique. وكان بين الشبان الذين تقدموا إليه في هذا الامتحان غلام في الخامسة عشرة من عمره، هو (مكسيميليان مارى). رآه الأستاذ الفيلسوف وسأله. فأعجبه وأعجب به. ورأى أن الخير في ألا يقبله هذا العام. فأجله سنة ثم قبله بعد ذلك. واتصلت بين الأستاذ وتلميذه محبة لم تلبث أن بلغت أقصاها. وإذا الفتى يميل إلى أستاذه وفلسفته وإلى الحرية خاصة. وإذا هو يستقيل من المدرسة ويتبع الأستاذ ويتتلمذ له ويعيش من التعليم في المدارس الحرة على كره من أبيه. وفي سنة ١٨٤٤ يتزوج هذا الفتى ويعيش مع امرأته في بيت الأسرة. حيث يزوره الأستاذ من حين إلى حين. وهناك يلقى أخته (كلوتيلد) فلا يكاد يسمعها ويتحدث اليها، حتى تفضي به وبيها قصة الغرام.

وكانت كوتيلد هذه في الرابعة والعشرين من عمرها ولكن حياتها كانت مثقلة بالخطوب. كان أبوها رجلا من الطبقة الوسطى، عمل في جيش الأمبراطورية وارتقى في آخر عهد الأمبراطور إلى رتبة الكابتين، ثم سقطت الأمبراطورية فأحيل إلى الاستيداع. وعاش من مرتبه العسكري الضئيل. وكانت أم الفتاة من أسرة شريفة من أهل اللورين. فنشأت (كلوتيلد) نشأة فيها بؤس وضيق: ولكن فيها احتفاظاً شديداً بتقاليد الطبقة الوسطى. ولم تكد تتجاوز الخامسة عشرة حتى زوجت من رجل يحمل اسما من أسماء الأشراف. ولكن حظه من الشرف كان قليلا. وهو (ميودي ڤو). اقترن بالفتاة وعين جابياً للضرائب. وقضى مع امرأته أعواماً لا هو بالسعيد ولا هو بالذي يمنع امرأته قسطاً من السعادة. ثم أصبح الناس ذات يوم، وإذا هو قد ذهب إلى سفر مجهول، وما هي إلا أن يبحث عنه ويفتش عن أمره، حتى يظهر أنه قد بدد أموال الدولة. وشيئاً كثيراً من أموال الناس في اللعب. ثم هرب من فرنسا، إلى حيث لم يعرف من أمره شيء.

تظلت هذه المرأة الشابة معلقة. لا هي بالمتزوجة، ولا هي بالمطلقة. محزونة، بائسة، لا أمل لها في الحياة. عادت إلى أسرتها تعيش بينها. وعكفت على نفسها تعيد وتبدي ما يجول فيها من خواطر الألم والحزن، ثم أخذت تكتب ما تحس وتفيد ما تجد. وإذا هي كاتبة لها حظ من أدب ونصيب من خيال. وكان جمالها معتدلا لا إسراف فيه. وكانت المحنة قد أفادتها رصانة ورزانة، وأفاضت على شخصها شيئاً من الحب يعطف النفوس عليها، وأجرت في حديثها شيئاً من العذوبة الحلوة الهادئة، يحببها إلى القلوب.

فلما لقيها الفيلسوف في بعض زيارته لأخيها، نظر اليها فلم تكد تبلغ نفسه، ونظرت هي إليه فأنكرته وأكبرته. أنكرت شكله الدميم، وصورته القبيحة، وخلقه المضطرب المرتبك، وأنكرت صوته الغليظ، وحديثه المتكلف. ولكنها

أعجبت بذكائه ، وأكبرت عقله وفلسفته . وسكتت عنه وسكت عنها . وأتصلت الزيارات ، واتصل اللقاء . وأخذت نظرات الفيلسوف تستقر على الفتاة . وأخذت أذن الفتاة تطمئن إلى حديث الفيلسوف ، ولكن أحداً مهما لم يشعر بأن صاحبه قد وقع من نفسه موقعاً خاصاً .

كان الفيلسوف يزور الأسرة ثلاث مرات فى الاسبوع ، وكان يجد لذة ودعة فى هذه الزيارة . كان يلقى ثلاثاً من النساء : أم تليده وكانت مشغوفة بالتصوير . تحاول دائماً أن تصور الفيلسوف ، وزوج تليده وكانت موسيقية تطربه بالتوقيع على البيانو ، وكلوتيلد أخت تليده وكانت أديبة تحدثه عن الأدب وعن قصتها التى أنشأتها وسمتها « لوس » ورمزت فيها لحياتها الخاصة ، وربما أنشدته شيئاً من شعرها . ولم يكن الفيلسوف يحب الأدب ولا يحفل بالشعر ، ولكنه كان يجد لذة فى أدب كلوتيلد ، ويذوق الجمال فى شعرها وإن لم يكن هذا الشعر جميلا ، وإن لم يكن مستقيم الوزن أحياناً . وكان الفيلسوف يتحدث إلى كلوتيلد عن فلسفته الوضعية ، وعن مجلداته الخمسة التى ظهرت تذيع هذه الفلسفة فى الناس ، وعن أنصاره وخصومه ، وعن دروسه فى الفلك . وكانت الفتاة تعجب بهذا كله ، وإن لم تكن بطبيعتها مشغوفة بالفلسفة . وكان الفيلسوف يلتمس إرضاءها والتقرب إليها على غير شعور منه ، فيذكر لها براعة النساء فى الأدب والفلسفة . وكان هذا الحديث يروقها ويتملق كبرياءها . وكانت الفتاة تكبر فى نفسها حين ترى الفيلسوف قد رآها لثقته أهلا . وذات يوم سقطت على الفيلسوف من السماء سعادة لم يكن يقدرها ولا ينتظرها ولا يحسب لها حساباً . زاره تليده ومعه أخته ، وكان الفيلسوف فى جماعة من العلماء . وكان الحديث علمياً عميقاً . فابتهج الفيلسوف وأعجبت الفتاة ، وجلست تسمع فى إكبار وتأوب خفيف لحديث العلماء ، ثم همت تريد أن تنصرف لجمع الفيلسوف شجاعته كلها فى يديه واستأذن الفتاة فى أن يزورها فى بيتها الخاص ، فأذنت . هنالك بدأت الخصومة بين الهة الفلسفة والهة الجمال . هنالك اضطرب « اغست كونت » بين العقل والقلب ، وبين التفكير والحب . هنالك أخذ الفيلسوف يسأل نفسه : ما قيمة هذا العلم الخالص الجاف ؟ وما قيمة هذا التفكير العميق العقيم ؟ ومتى كان الرجل رجلا بعقله دون قلبه ؟ ومتى كان الانسان انسانا بالتفكير دون الحب ؟ إن الانسان لا يستطيع أن يفكر فى كل وقت ، ولكنه يستطيع أن يحب دائماً . وإذاً فقد تكون الهة الفلسفة مسرفة فى الطغيان . وقد يكون من الممكن أن يتحد « اغست كونت » رأسه معبداً لانيثا وقلبه معبداً لكلوتيلد .

وابتدأت زيارة الفيلسوف للفتاة فى بيتها . وإذا الحب يعلن ، وإذا الفيلسوف يلح فى حبه ويسلك إلى إقناع الفتاة بهذا الحب طرقاً شتى ، منها الملتوى ، ومنها المستقيم . ولكن كلوتيلد لا تحب ولا تهوى ، إنما تعجب وتكبر . فهى ترده عنها فى رفق ، وتطلب إليه مودته دون حبه . فلا يكاد يعرف منها هذا حتى يضيق بنفسه وبالحياة . وحتى تضيق به حصته ، ويعجز جسمه ورأسه عن احتمال هذا الخذلان ، فهو مريض يلجأ إلى السرير أياماً . وهو مشفق أن يعاوده جنونه القديم ، على انه يئس من مرضه . ويحاول أن يجدد عهده بالفتاة . ولكنها تحظر عليه زيارتها فى بيتها ، وتعده باللقاء عند أمها مرتين فى الاسبوع . فلا يكفيه ذلك ، فتعده بلقائه مرة ثالثة . فلا يكفيه ذلك أيضاً ، وتتصل بينهما كتب فيها حوار حلو ملؤه الحنان حين يصدر عن الفتاة ، عنيف معوج ملؤه الفلسفة حين يصدر عن الأستاذ . ثم يستحيل هذا الحب فى نفس الفيلسوف إلى شكل جديد . فليس هو حباً عادياً كهذا الذى يكون بين الناس ، وإنما هو التقاء شخصين عظيمين قد خلقا ليلتقيا ثم ليتعاونا على إصلاح الانسانية وإنهاضها . هى اذن قد خلقت له ولن يدعها ولن يتخذ غيرها زوجاً . اذا ماتت زوجه الثانية . ثم تستحيل هذه العواطف ويستحيل هذا التفكير إلى فن من الفلسفة ، يضمه « اغست كونت » فى رسالة ، ويهدى الرسالة إلى الفتاة بهذا العنوان : « رسالة فلسفية فى التذكار الاجتماعى » . فى هذه الرسالة يتغير رأى « اغست كونت » فى المرأة ومكانتها الاجتماعية تغيراً تاماً . فقد كان منذ أشهر يكتب إلى تليده « ستوارت ميل » فيرى أن ليس فى المرأة أمل ولا خير . أما الآن فهو يرى المرأة عنصراً أساسياً فى الاصلاح الاجتماعى الذى وقف نفسه عليه . وقد سرت الفتاة بهذه الهدية ، وكبرت فى نفسها

فزارت الفيلسوف مع أمها شاكرة له.

هنالك نشط الأمل وتجددت الحياة ، واعتقد الفيلسوف أنه سعيد . واستأنف الحاحه على الفتاة ، واستأنفت الفتاة مدافعته عن نفسها ، واحتالت فى ذلك حتى زعمت له أنها قد أحبت من قبله فتى كان لحبها أهلا ، وأحبها الفتى وسعد بهذا الحب ؛ ولكن لم يعدا الى الزواج سبيلا . لأن الفتى كان معلقاً مثلها بخاصم امرأته ولا يستطيع لها فراقا . فيئست من الحب والسعادة ، وأزمعت أن تنصرف عن لذات الحياة أبدا . ولكن الفيلسوف مغرم . والغرام لا يعرف اليأس ، وهو اذا كان صحيحاً قويا قد يتحول ويتشكل ، ولكنه لا يزول . وما الذى يمنع غرام كونت أن يتخذ شكلا فلسفيا ولو الى حين . لقد كان عود نفسه الحرمان منذ دهر طويل ، فألغى القهوة منذ عشرين سنة ، وترك التدخين منذ عشر سنين ، ثم ألغى النبيذ ثم ألغى الفاكهة ، ثم اتخذ ميزاناً يزن به ما يلائم حاجة جسمه من الطعام الخشن ، وكان ربما يكتفى بالكسرة من الخبز يتبلغ بها ، وهو يفكر فى اخوانه من الناس الذين قد لا يظفرون بمثلها . ومادام قد سيطر على نفسه الى هذا الحد . وعودها هذا الحرمان فى الطعام والشراب ، فماله لا يزيد هذه السيطرة وماله لا يعود نفسه الحرمان لا فى الحب بل فى لذات الحب . إذاً فليبق حبه قويا حارا ؛ ولكن ليظل هذا الحب نقيا طاهرا بعيدا من كل لذة ، وليتظر ، وليجتنب اليأس . فكل شىء يدنى الفتاة منه . وكل شىء يدنيه من الفتاة . لقد أصبحت زميلة له منذ نشرت بعض الصحف السيارة لها قصتها التى وضعتها عن نفسها فأصبحت كاتبة مثله تتحدث الى الناس فى الأدب كما يتحدث هو الى الناس فى الفلسفة . هما إذاً زميلان . بل هما أكثر من زميلين ؛ فقد أخذت الفتاة تدنو من مذهبه فى الفلسفة . وتحس ميلا الى آرائه الاجتماعية . وتكون منه مكان التلميذ والنصير . فليحب إذاً وليصبر . وفى أثناء ذلك كانت أم الفتاة تقول لها : لولا أن مسيو كونت قبيح دميم لقلت انه يتملقك ويدور حولك كما يدور العاشقون حول من يحبون . ومع ذلك فان من الحق عليه لك ولنفسه أن يفكر فى أن هذه الزيارات المتصلة المنظمة ، لا تليق بك ولا به لأنها تخالف العرف المألوف أشد الخلاف .

« يتبع »

اظر مجلة الثقافة التى صدرت فى أول فبراير سنة ١٩٣٣

الوادى [1]

للشاعر الفرنسى لامرتين

ان فى المكلوم المتقطع حبل رجائه حتى من الأمل ، لن يزعج الأقدار بعد الآن بابتهالاته كما كان يزعجها من قبل .

ولكن أيها الوادى . يامأوای فى أيام طفولتى ، افسح لى مجالا — ولو ليوم واحد — فأعيش فى ربوعك فى انتظار المنون .

* * *

هاهى ذى الطريق الضيقة المؤدية الى ذلك الوادى المظلم .

هنا . فى أحضان هذه الروابى ، تقوم أشجار تلك الغابات الكثيفة ، فترسل ظلها على وجهى الشاحب ، وتحوطنى بسكون مسكر .

* * *

وهناك جدولان يجريان تحت « جسور (٢) » من الأعشاب المخضوضرة ، فيرسمان فى انسيابهما تعاريج الوادى ومنحدراته . وتراهما بين الفينة والفينة ، يمزجان تموجاتهما الفضية بألحان خريرهما العذبة ، ثم يتلاشيان قريبا من المنبع ، بعيداً عن أعين الناس .

* * *

وأيامى فى انسيابها أشبه بهذين الجدولين ! فهى تمضى وتتلاشى دون أن يشعر بها الناس ، ودون أن تحدث ذلك الخرير العذب ! أما نفسى الكئيبة المتلاعة فهيهات أن تعنى بحياة يوم جميل من أيام حياتى .

* * *

ان خمائل الوادى الفيحاء ، بظلها المخيم ، دفعتنى لقضاء النهار (٣) كله على ضفاف جداولها . ففى الحساسة تغفو على أنغام خرير المياه ، كما يغفو الطفل فى مهده على صوت المغناة .

* * *

هناك تحوطنى الطبيعة بأسوار من العشب الأخضر ، وبأفق محدود ، لكنه فسيح لناظرى .

---

١) نظم لامرتين هذه القطعة الشعرية المتازة فى أواخر عام ١٨١٩ ، بعد أن قام فى الوادى الذى يعنيه Pérouillet سنة كاملة .

٢) أصل هذه الكلمة Ponts وقد احتفظنا بمعناها الصريح .

٣) هنا يتذكر الشاعر يوما مشئوما كاد يموت فيه غرقا فى بحيرة صغيرة لولا نشاط أحد أصحابه إبان تهوره .

انى أحب أن أثبت قدمى ، وأن أبتعد عن الناس لأسمع خرير المياه ، ولأتمتع برؤية السماء .

* * *

لقد رأيت فى حياتى أموراً كثيرة ، وشعرت بأحاسيس جمة . وملأت أيامى عشقا . والآن جئت أسترجى الطبيعة فى هدوئها الشامل .

أيتها الأماكن البهيجة الجميلة ! كونى لى تلك الضفاف التى ينسى الانسان بقربها كل شىء . فقد أصبح سر سعادتى فى النسيان .

* * *

هنا يطمئن قلبى : هنا ترتاح نفسى : هنا تلفظ صوضاء العالم البعيد أنفاسها الأخيرة كما يلفظ الصوت البعيد أنفاسه حين تعذبه المشقة قبل أن يصل مع النسيم الى الأذن الحائرة .

* * *

من هنا ، ومن خلال هذه الغيوم الصافية ، أرى ماضى حياتى يختفى فى ظلام دامس . تاركا فى نفسى ذكريات حية لحى . كما تترك اليقظة فى نفس المستيقظ صور خيالات جميلة لحلم لذيذ قد استفاق منه .

* * *

يانفسى ! خذى حظك من الراحة فى هذا المنزل الأخير كما يأخذ المسافر الطافح قلبه بالآمال ، حظه من الراحة ، قبل أن يدخل أبواب المدينة . يستنشق هنيهة نسيم الماء المعطر .

* * *

ولننهض نحن أيضا كما يفعل هذا المسافر ، لأننا لن نمر ثانية فى هذه الطريق التى اجتزناها ملوية بالغبار . ولنتذوق مثله أيضا ، فى آخر مرحلة من طريقنا ، هذا الهدوء الذى يبشرنا بضجعتنا الابدية .

* * *

أيها الانسان ! ان أيامك المعدودة ، التى تشبه فى حلكتها وقصرها أيام الخريف ، تتحدر بك كما يتحدر الظل على جوانب الهضاب . فالصداقة تخونك ، والرحمة تعرض عنك ، الى أن تتركك فى طريق القبر وحيدا .

* * *

ولكن الطبيعة هنا تدعوك اليها لتنسك أشواقها ، فارتم فى أحضانها .

عند ما يقلب لك كل شىء ظهر المجن ، عند ما يخونك كل شىء ويعرض عنك ، ترى الطبيعة على حالها المعهودة . فالشمس نفسها تشرق طيلة أيام حياتك .

* * *

ان الطبيعة لم تزل كما كانت عليه بالامس . ترشدنا تارة بنور حقيقتها . وتضللنا أخرى . فلا تأسف أيها الانسان لكل ما تضيعه من متاع الحياة الدنيا ، وتعال نعيد ذلك الصدى وألحان تلك الموسيقى العلوية كما كان يتعبدهما « فيثاغورس (١) » من قبلك .

* * *

دع الطرف يناجى الزرقة فى سمائها نهارا . والاشباح فى محرابها ليلا : واسبح مع الغيوم على بساط الريح : واخترق غابات الوادى الظليلة مع أشعة ذلك الكوكب الخفى .

* * *

ان الله خصك أيها الانسان بالعقل والفطنة لكى تحقق بهما وجوده . فاستجله فى صحيفة الطبيعة ، فان فى سكونها وهدوئها صوتا يهتف باسمه .

من منا لم يسمع هذا الصوت يدوى فى أعماق قلبه ؟ .

بيروت — محمد كرما

---

(١) هو عالم وفيلسوف يونانى ، عاش فى القرن السادس قبل المسيح . تعمق الطبيعة ، وهو مدين لها بكثير من بحوثه العلمية كسرعة الصوت فى الهواء . وأسباب حدوث الصوت . الخ . . .

oooooooooooo

غـــيرة

قد زرعنا بين أفواف الربا ... وردة الحب لاقبال الربيع
داعبتها عند إقبال الصبا ... نسمة الآصال والصبح الوديع

....

خلع الروض شذاه بعدها ... وحباها اللون وجنات الحبيب
فهى كالنار ، ولكن عندما ... تشتهى الأفواه تقبيل اللهيب

....

كان قلبى مسرح الود الندى ... وسقته العين أمواه الحياه
وعزيز أن أرى غرس يدى ... تحتويه بين عينى الشفاه

....

وردة الحب استباحت أدمعى ... وتولت عند إقبال الخريف
عذبت قلبى وأبكته معى ... وأرتنى كيف إذلال الضعيف

« محمود محمد متصر »

العلوم

أسرع كمرة فى العالم

صورة تؤخذ فى جزء من ٤٠٠٠٠ من الثانية

اذا أردت أن تصور جسما ثابتا ، كتمثال من الحجر ، كفاك فى ذلك ان تثبت أمامه كمرة عادية فى البساطة ، تتكون من خزانة مظلمة ، بسطحها القريب من التمثال عدسة تركز الأشعة المنبعثة منه على فلم حساس فى السطح المقابل من الخزانة . فترتسم عليه الصورة المرغوبة . ثم يستخرج الفلم فى الظلام ويثبت بالطرق المعروفة . ومن أهم الأمور التى يراعيها المصور مدة التجلية Exposure أى مدة تعريض الفلم للضوء . وهى تتوقف على أمرين : أولهما درجة احساس الفلم ، وثانيهما شدة الضوء الذى ينير التمثال . وفى المثل الذى نحن بصدده يكفى أن يغطى المصور عدسة هذه الكمرة البسيطة بورقة متوافسودا ، فاذا حان وقت التصوير جلى عن الفلم مدة ثانية أو ثانيتين أو ثلاث أو أربع حسب ضوء الشمس الحاضر ، وذلك بازاحة الغطاء ثم رده سريعاً الى مكانه .

هب بعد ذلك أنك تريد تصوير رجل من لحم ودم ، وهب أنك وقفته مكان التمثال وجليت عن الفلم ثلاث ثوان أو أربع ، فهل تدرى ما الصورة التى تخرج لك ؟ صورة مغبشة على الأغلب لأن الانسان ليس له سكون الحجر ، فهو لا يستطيع صبراً على الوضع الواحد ، فتتحرك فيتخذ أوضاعا كلها ترتسم على الفلم فتخرج الصورة مبهمة الخدود متضاعفة الخطوط مختلط بياضها بسوادها . فتجد نفسك عندئذ فى حاجة الى تقصير مدة التجلية حتى لا يتحرك الرجل ، ومعنى هذا أنك بحاجة الى زيادة حساسية الفلم . ومعنى هذا أيضا أنك بحاجة الى زيادة شدة الضوء . فبدل أن تصور فى نور الصباح الأول أو فى نور المساء الأخير . تصور والصباح ضاح مشرق ، وعندئذ تكفيك بعض الثانية عن الثوانى الكثيرة

هب بعد هذا أنك تريد أن تصور رجلا وهو يسير ، أو حيوانا كقطة أو كلب لا تستطيع انت أن تريده على السكون ، أو هب أنك تريد أن تصور حصانا وهو يجرى ، أو طائرا إذ يطير ، أو قطارا ينهب الأرض . فقد لا تنفعك تجلية الفلم ثانية أو عشر الثانية ، فالقطار الذى يسير بسرعة ٦٠ كلم مترا فى الساعة يقطع فى الثانية الواحدة نحوا من ١٧ مترا . فانظر كم صورة تنطبع عندئذ على الفلم فى الثانية الواحدة ، وتخيل مقدار تغبش الصورة الحاصلة .

فكان لابد من تقصير مدة التجلية تقصيرا كبيرا كأن تكون مدة التجلية جزءا من مائة من الثانية أو من مائتين ، ولما كانت اليد الانسانية لا تستطيع كشف العدسة وتغطيتها بهذه السرعة كان لابد من ابتداع غطاء تحركه قوة آلية كقوة الزنبركات مثلا . وتدخلت الكيميا لتزيد فى حس الأفلام لكى تتأثر بالضوء فى المدة القصيرة الجديدة . وتقدم الانسان فى اختراع الكمرات السريعة حتى أصبح تصوير المتحركات أمرا سهلا لا يكلف تعبا ولا اجهادا . وأصبح مألوفا حتى لا يثير استغرابا ولا اعجابا . وصرنا نحلل بها حركات الحيوان لنعرف منها تفصيل سيره . ونحلل حركات الطائر لندرك منها كنه طيره . وصرنا نجمع هذه الوحدات التى تحللت الينا الحركة . والعناصر التى تقسمت الينا أفعال الحيوان والانسان ، فنعرضها على الشاشة البيضاء متتابعة متواصلة . فنحكى من حوادث الوجود ما نشاء ، أين نشاء ، ومتى نشاء .

ولكن من حوادث الوجود ما يحدث فى مدد تقصر عنه تنافس العين فى لحظها والخاطر فى لمحه . فلا بد من تقصير مدة التجلية إلى ما يسبق لحظة العين ويقاصر لمحة الخاطر . وإذن فلا بد من الزيادة فى حساسية الأفلام . ولا بد من زيادة الضوء حتى يزيد على ضوء الشمس . فجد الباحث بعد الباحث ، وعاون المفكر المفكر . وتضافر الطبيعى والكيميائى ، والرجل النظرى والرجل التطبيقى ؛ حتى جاءت الأنباء حديثاً بأسرع كمرة عرفها الزمن ، كمرة إذا صدقت الأخبار العاجلة تصور الصورة فى جزء من أربعين ألفا من الثانية ، اخترعها أستاذان من أساتذة معهد الصناعات بماساشوسيت بالولايات المتحدة . وهى تعتمد بالطبع على فلم شديد الحس . ولكن أكبر اعتمادها على دورة كهربائية تستطيع أن تحدث برقة ضوئية أسطع من شمس الظهيرة مرات وهى تعدل فى شدة ضوئها ٤٠٠٠٠ مصباح كهربائى مركزة كلها فى صعيد واحد ، قوة الواحد منها خمسون وطا .

وقد استطاعا أن يصورا بها أموراً عدة لا تستطيع أن تصورها الكمرات السريعة المعروفة . نذكر من ذلك صورة للماء النازل

من الصنبور، فهذا يخرج تحت ضغط وتثير قطراته فى السيل المندفع بسرعة كبيرة. وإلى هذا فهى تتحرك فى كل جهة بحركات تختلف سرعاتها باختلاف تدافع القطرات واتجاهها، وتراها فى الصورة المرفقة كما تما قال لها انه اجدى مكانك فجمدت، وتراها على غير ماتراها العين من الانسجام والملاسة.

الماء والصنبور

المضرب والكرة

ومن ذلك صورة للضرب إذ يضرب به اللاعب الكرة فى اللعبة المعروفة بالجلف، فانك ترى الكرة المصنوعة من المادة الصلبة القوة قد انبطحت من قوة الضربة؛ ولأن انبطاحها لايستغرق إلا جزءاً من الثانية فى غاية الصغر كان من المتعذر على العين أن تراه؛ وكان من المتعذر على الكرات العادية أن تسجله. وبقى أمراً مفروضا حتى أتت الكرة السريعة لجعله رأى العين. والعين جهيزة الحجج، إذا رأت قطعت قول كل خطيب.

على أنه لا يفوتنا أن ننبه الى أن كل صورة لشىء متحرك، مهما كان نوعها، وبأى كمرة صورت، ما هى الا مجموعة من صور لا حصر لعددها. هب أنك أخرجت يدك من جيبك فوضعتها تحت ذقنك؛ وهب أن هذا حدث فى ثانية واحدة، فانك لتجد يدك اتخذت عدداً من الأوضاع لا حد له. فما دامت يدك فى حركة مستمرة ففى كل من أجزاء الثانية، مهما صغر، وضع خاص به يختلف عن وضع الجزء الذى يليه من الثانية. ومن الطبيعى أننا كلما زدنا للثانية تجزيئاً زادت هذه الأوضاع عدداً. ولكن كذلك كلما زدنا فى التجزئة قل الخلاف بين أشكال هذه الأوضاع العديدة حتى تعجز العين الانسانية عن ادراكه. فصور الكرة السريعة المرفقة هى فى الواقع عدة من صور عجز حس الانسان عن ادراك الفروق بينها. فحس الانسان لدقائق المكان محدود، كما أن حسه لدقائق الزمان محدود.

ولعل هذا التألم فى الاحساس نعمة من نعم الله. ولو أن هذه الحدة فى الاحساس بالزمان والمكان أعطيت لى هبة لترددت كثيراً فى قبولها. لأنى ان قبلتها لم أجد فى الكون شيئا ناعماً، حتى أكثر المرايا انصقالا تصبح فى عينى كسطح الصخرة المتهشم. ولأنى ان قبلتها تراءت لى الدنيا تموج بمخلوقات أنا الآن عنها أعمى. وتكشف لى فى طيات الدنيا التى أعرفها وفى حواشيها دنى أنا سعيد بجهلها. ولان ان قبلتها لم يكن للنطقة الكون موضع من قاموس لغتى. ولأصبحت أحس فى هدوء هذا الليل وأنا أكتب هذه الكلمة على مكتبى هذا الساكن، وفى حجرتى هذه الهادئة كأنى أكتبها فى عربة رجراجة من عربات الترام اذ تمر نهاراً فى أشد أحياء المدينة صخباً وجلبة. وأخيراً لأن ان قبلتها وقبلت زيادة الاحساس بالزمن أصبحت ثانيتى ساعة وأصبحت ساعتى سنة وسنواتى ألوفا.

الانفلونزا أو النزلة الوافدة

للدكتور سامى كمال

النزلة الوافدة مرض مستوطن فى القطر المصرى، فلا يمر شتاء دون أن نسمع ببعض إصاباته؛ لكن هذه الاصابات لا تأخذ شكلا وبائياً، وتظهر عادة فى فصل الشتاء مقرونة بسابق التعرض لبرد شديد أو للرطوبة، ومرافقتها دائماً حمية.

وتظهر هذه النزلة الوافدة فى جميع أنحاء العالم، كما تظهر عندنا، ويكثر عدد المصابين بها فى البلاد الباردة. وتقل إصاباتها عادة عند حلول فصل الربيع.

وهى تنتقل بالعدوى بواسطة جراثيم خاصة؛ تلك الجراثيم عبارة عن بذور تتفاوت فى حيويتها وتأثير افرازاتها. لأن الجراثيم لا تؤثر إلا بفعل هذه الافرازات التى هى من أقوى السموم وأشدها فتكا بالانسان.

فاذا صادفت أجساماً قوية قاومتها. أما اذا عرضت لها أجسام ضعيفة فانها تقوى عليها، وتشتد بانتقالها على غيرها، وتزداد قوة اذا تهيأت لها ظروف خاصة. كما حصل ذلك فى نهاية الحرب العظمى عام ١٩١٨ اذ وجدت الانسان ضعيفاً جائعاً منهوك القوى والأعصاب ففتكت به. ومات بالنزلة الواقعة فى العالم عدد يفوق عدد من مات فى ميادين القتال.

هنا تكون وبالا، وهنا تكون خطراً على العالم أجمع، حيث تنتقل مع المسافرين بسرعة الطائرات والسيارات.

وهذا النوع من النزلة الوافدة الوبائية يسمى عادة باسم

الوطن الذى نشأ فيه ، ففى عام ١٩١٨ كانت اسبانية ، وهى فى هذا العام انجليزية .

وكل الأخبار تدل على أن خطر هذه الواقدة الانجليزية أقل بكثير من سابقتها الاسبانية . وأوبئة الواقدة تتشابه فى مجموعها من حيث الأعراض . لكنها تتفاوت من حيث مضاعفاتها وخطرها على العموم .

ومدة حضانتها ، أى من وقت العدوى إلى وقت ظهور أعراضها لاتزيد على اليومين .

أما أعراضها فزكام واحتقان فى أغشية الحلق والمجارى الهوائية مع قشعريرة وحمى وشعور بتكسر فى الجسم وعطس وسعال ، وهى سريعة العدوى خصوصاً لأن أكثر الناس لايتحفظون فى دورهم عند الاصابة بها ، بل يستمرون فى مزاولة أعمالهم ، يذهبون ويجيئون ويخالطون الناس .

وهم لو عرفوا كيف تحصل العدوى وعزلوا أنفسهم فى بيوتهم وحجراتهم لدرأوا عن أنفسهم وعن عائلاتهم وعن مواطنيهم شر هذا المرض .

ان العدوى تحصل بواسطة العطس أو السعال اللذين ينقلان جراثيم المرض مباشرة الى السليم .

لذا يتحتم على المريض أن يتحاشى العطس أو السعال فى وجه الناس وليفعل ذلك يميناً أو شمالا .

كذلك من يخالط المرضى يجب عليه أن يحتاط بوقوفه جانبا غير هياب ولا وجل ، يخدم فى رفق ثم يغسل يديه ، ويستعمل مطهرات الفم والأنف . ويجب أن تكون غرفة المريض معرضة لأشعة الشمس يتجدد الهواء فيها مراراً كل يوم ثم يلازمها المريض عند أول الشعور بالمرض ، ويستعمل الأطعمة السائلة والمعرقات والمشروب الساخن وهو خير علاج بجانب الاسيرين والكينين عند الاحتياج حسب أمر الطبيب مع استعمال مطهرات الأنف والحلق .

ومن خير الاحتياطات الابتعاد عن حضور الاجتماعات العامة خصوصاً فى المحلات المغلقة ، واستعمال مطهرات الأنف كزيت الاوكالبتوس صباحاً ومساء . ومطهرات الحلق مثل الماء المضاف اليه نقط اليود والابتعاد عن المرضى ؟

بحوث مصائد الأسماك وماهيتها

للدكتور حسين فوزى

مدير ادارة ابحاث المصائد

ليس المخلوق الحى مع ماهو عليه من مظهر الوحدة سوى مجموعة مركبة من مواد عضوية وغير عضوية ، تربطها بعضها قوى طبيعية هى نفس القوى الصادرة عن الكون المحيط بها . لذا يتقدم الباحث لدراسة هذه المجموعة كوحدة حية أولا ، ثم كجزء من ذلك الكل أو الوسط الذى يعيش فيه ثانياً وقد أطلقت كلمة « بيولوجيا » « علم الحياة » على مجموع هذه الدراسات : دراسة أشكال المخلوق الحى وأوضاعه فى الفضاء وهى « المورفولوجيا » ودراسة أوصاف أجهزته وأعضائه وهى « علم التشريح » والبحث عن تطور هذا المخلوق من البويضة حتى يصبح كامل الخلق وهو (الايمبريولوجيا) « علم الأجنة » ، ودراسة وظائف أجهزته وأعضائه وهى (الفيزيولوجيا) . ودراسة الحياة وقوانينها وتطوراتها الكونية . والوسط الذى تعيش فيه المخلوقات باحثة عن غذائها . والغازات الضرورية لتنفسها ، وكذا أثر هذا الوسط فيها . وتوزيعها حسب تطوراته . تلك هى (الأيكولوجيا) .

والأحياء المائية تتميز من غيرها بأن الوسط الذى تعيش فيه هو الماء . وهذا النوع من الحياة هو أهم الفروق بينها وبين الأحياء الأخرى . لأنها فيما عدا ذلك تتنفس وتتغذى وتتناسل وتؤدى أعضاؤها نفس الوظائف التى تؤديها الأحياء الهوائية . وانما تطور هذه الوظائف ويتطور شكل المخلوقات المائية تبعا للوسط الذى فرض عليها مظاهرها الخاصة .

والأسماك فصيلة من المخلوقات المائية استرعت اهتمام الانسان منذ أقدم العصور لأنها مصدر هام لغذائه . فالانسان منذ النشأة الأولى كان صيادا قنصا . على أنه ثمت أحياء مائية أخرى انتفع بها الانسان أما لغذائه أو لأغراض نفعية أخرى . نكتفى منها بالاشارة الى الصدفيات (كالجندوفلى وأم الخلول) . وذوات القشور (كالجمبرى واللانجوست) للغذاء . والى الاسفنج وحيوانات اللؤلؤ والمرجان والملاحف المائية والتماسيح (الباغة والجلود) لزينته ونظافته . والى الدراقيل والحيتان لصنع الجلود واستخلاص الزيوت . والى بعض الأسماك لاستخلاص سمك « الجوانو » والقراء الحيوانى والمستحضرات الطبية كزيت كبد البكلاه (زيت كبد الجوت) والى الأعشاب البحرية التى يستخرج منها اليود وينتفع بها فى الأسمدة .

وتقصر هذا المقال على بحوث الأسماك وهي بحوث يمكن تطبيقها على الأحياء المائية الأخرى مع بعض تغيير في الطرائق بقضي به تكوينها المختلف ونوع حياتها الخاص .

أول ما ينبغي به من يدير شأنا من الشؤون كمدير أو مخبرة هو أن يعرف ما هو به القريب من معادن في طبقه مخصوصة . أو ما يعيش في البحيرة من مخلوقات نافعة أو ضارة . لذا كان أول ما يهم مخبر المصائد هو أن يستعرض المخلوقات التي تعيش في مياهه فيعمل لها سجلا . وعلى أساس هذا السجل يستطيع أن يتعرف طرائق نموه . وأن مؤلفا جليلا مثل « أسماك النيل » (لبولانجيه) أو « أسماك البحر الأحمر » لكلوتنسجر . لهو محاولة موفقة في هذا السبيل . فعلى مخبر المصائد أن يجمع المعلومات من المصائد المصرية المختلفة عن أنواع الأسماك التي تدخل أسوافنا ، بل والأنواع الأخرى التي لا يهتم بها صيادونا أو لا يعرفون طرق صيدها . وليس عمل قائمة بجميع أسماك المياه المصرية سهلا كما يتراءى لأول وهلة . فقد ظهر كتاب « وصف مصر » الذي قامت به البعثة الفرنسية الملحقة بحملة بونابرت الى يومنا هذا لم تبلغ بعد قائمة أسماكنا حد التمام خصوصا في البحرى الأحمر والأبيض . فمتى أسماك لا يعرف صيادو البحر الأبيض طرق صيدها (وأخصها الأسماك الرحل) . كما أن طرق الصيد في البحر الأحمر لما تزل على حال من البساطة يتعسر معها الحصول على جزء كبير من الأسماك التي تعيش في ذلك البحر .

فأمام أخصائي المصائد في مصر سنوات طويلة يقضونها في البحث المتواصل حتى تتم قائمة الأسماك المصرية مرتبة حسب الأنواع والفصائل والأجناس . كما ينبغي أن تدعم هذه القائمة بمتحف كامل يضم نماذج من جميع أسماكنا جيدة الحفظ جلية العرض .

كذلك ينبغي الأخصائي بمعرفة مواطن الأسماك . فمتى أسماك تقطن الماء العذب وأخرى تقطن الماء الأجاج . وغيرها تعيش في البحار . أو تتنقل بين الماء العذب وماء البحر . ومن الأسماك البحرية ما تعيش على القاع . وتفضل نوعا من القاع . رمليا أو صخريا أو طينيا . ومنها ما تغشى الصخور وفرجاتها . ومنها ما تعيش في طبقات الماء العليا أو السفلى متنقلة بين مناطق البحر سريعة الحركة .

وفي مياه النيل يهمنا أن نعرف مواطن كل نوع من أسماكه . تلك التي تأوي الى الحشائش أو تعيش على القاع الطيني . وتلك التي تقاوم التيار أو تقاوم كتلة من الملوحة تسبح لها بالجباذ اذا ما وصلت مع المصارف الى بحيراتنا ذات الماء الأجاج .

فاذا عرفنا مواطن كل نوع من السمك وجب علينا أن ندرس توالده . فعندما تبلغ الأسماك طورا معلوما تختلف باختلاف الأنواع يتضح جهاز مالك سلي فصلي ، مبايض الأنثى بأجسام كروية سمر تميز المجردة كما يظهر ذلك بفحص قطعة من الطارخ . وليست هذه ألا مبيضا ممثلا ببويضات أنثى البوري الناضجة . وإذ تتضح الأنثى فهي مادة بالبيض . وذلك بأن تلقي بالآلاف من بويضاتها في الماء . إما على قاع رملي أو طيني . أو بين الحصى أو الأعشاب المائية أو في شقوق الصخور . أو في أوكار محفورة في الطين . أو بين طبقتين من الماء حيث تبقى البويضات عائمة بفعل ثقلها النوعي وكذا يتضح الذكر عند طول معلوم يقرب من طول الأنثى . ويغلب أن يكون أقل قليلا . وينتج جهازه التناسلي خليات سريعة الحركة لا تراها العين المجردة . ففي موسم التوالد تتآلف الذكور والإناث ، فما تكاد تلقي الأنثى ببويضاتها في مكان من الأمكنة التي سلف ذكرها حتى يتقدم الذكر الى ذلك المكان ليلقي بملايين من تلك الخليات السريعة الحركة بجانب البويضات التي لا حراك بها . وتسرع تلك الخلايا الى الاندماج في البويضات . وقد يجتمع للبويضة بضعة من تلك الخلايا . فلا ترضى منها بغير واحدة تتغلغل داخلها وتمتزج بها كل الامتزاج وينمو هذا الاتصال في البويضة حياة جديدة أذ تنقسم — وهي خلية واحدة — الى ملايين من الخلايا تتطور حتى تصبح مخلوقا صغيرا لا يشبه والديه فهو محوط بغشاء رقيق هو غشاء البويضة الخارجي يذيبه ثم يخرج الى الماء مزودا بكيس محي يكون غذاءه في الأيام الأولى . فاذا ما نفد ذلك الغذاء أصبح الجنين سمكا صغيرا يسعى وراء غذائه . وهو لا يزيد طولا على بضع ملليمترات . ولا يزال يكبر حتى يبلغ بدوره الطول الذي تتضح فيه أعضاؤه التناسلية أن ذكرا وإن أنثى .

على أن السمك وقد بلغ ذلك الطول لا يبيض طوال السنة . لان عملية نضوج الجهاز التناسلي عملية دورية تبلغ تمامها في وقت معين من السنة يختلف باختلاف الأنواع : فمن أسماك تبيض في الشتاء وأخرى في الربيع أو الخريف أو الصيف . وقد يستمر مبيضا أياما أو شهورا . وكذا ينمو الذكر تطورا موازيا لتطور كل أنثى من نوعه .

وفهم أمثال هذه الحقائق — كمعرفة عمر الأسماك والطول الذي يتضح عنده جهازها التناسلي — من أهم القواعد التي يستند عليها التطبيق العملي . لانه لما كان من الضروري أن يسمح لأكبر عدد من الأسماك بالتوالد وجب أن نعرف وقت هذا التوالد لحماية النوع ضد عادية الصياد عنه . وهذه الحماية لا تتناول الأنثى فحسب بل يجب أن تتناول البويضات وأفراخها

وإذا كان من المهم أن نعرف المناطق التي تشاها الأسماك وقت التوالد فيمنع الصيد فيها . من ذلك مثلا أنواع البلطي التي تبيض وتفرخ بين الحشائش المائية (كالبردى) فيجب ابعاد الصيادين عن تلك المناطق أثناء موسم التوالد

ومن أسماكنا كالبورى والطوبار ما يترك الماء العذب أو البحيرات الشاطئية ليخرج الى البحر فيفرخ .

ولما كان مخرج هذه البحيرات الى البحر بوغازاً ضيقاً . أصبح واجباً منع الصيد بتاتاً في البواغيز الموصلة بين البحيرة والبحر للسماح للبورى والطوبار بالخروج الى البحر . ولافراخه — وهي تقدر بالملايين — بالعودة الى البحيرات

كأننا بهذه المعلومات البيولوجية استطعنا أن نفي بالشرط الاول من شروط علم الحيوان التطبيقي . وهي حماية النوع بمساعدة الطبيعة في مجهودها نحو بقائه .

على أن هذه المعلومات يمكن الانتفاع بها على وجه آخر . إذ يمكن للاخصائي أن يقلد الطبيعة في عملها باعداد أمكنة خاصة لافراخ الاسماك وتعهدها بالعناية ، وذلك برد أعدائها عنها وتغذيتها تغذية تساعد على نموها العاجل . كذلك يستطيع نقل الاسماك من جهة تكثر فيها الى جهة صالحة لنموها وتوالدها ولكنها فقيرة منها .

وفي البحار تتخذ هذه المسائل طابعها الخاص . ولكن الدراسة تقضي هنا أيضا بتعرف حياة الاسماك البحرية من سرعة نموها الى أمكنة توالدها الى هجرتها .

لقد كان حديثنا حتى الآن عن السمك نفسه تلك الوحدة الحية التي ليست سوى جزء من كل . وهذا الكل هو الوسط الذي يعيش فيه الاسماك ولها به صلات وثيقة . لذا كانت دراسة هذا الوسط تعادل في الاهمية دراسة السمك نفسه . هذا الوسط متجانس ظاهراً . ولكن كم من العوامل تجعل من هذا التجانس الظاهر اختلافات عديدة . ومن الطبيعي أن يتأثر المخلوق المائي بتلك العوامل . لقد كانت جميع المخلوقات في ظلام التاريخ الجيولوجي تعيش في الماء مرنة التكوين سهلة التأثر بالعوامل المحيطة . وقد احتفظت المخلوقات التي لا تزال تعيش في الوسط المائي بتلك المرونة التكوينية التي كانت الاصل في تعدد الانواع . ودراسة الوسط المائي دراسة تفصيلية تلقي ضوءا جديدا على عوامل التطور

على أن لهذه الدراسة اهميتها العملية . فالوسط المائي يشطر أعمال الاخصائي شطرين — بيولوجيا المياه البحرية ، وبيولوجيا المياه العذبة . وقد يتصل الشطران اذ يختلط وسط بآخر كما يحدث ذلك في بحيرات الساحل أو يختلط بحران من تكوين وطبيعة مختلفين كما حدث ذلك بعد قناة السويس .

ما منشأ اختلافات المياه العذبة والماء وسط متجانس ؟ أولها وأهمها وجود المواد الذائبة فيه . وينشأ عن وجود هذه المواد ظواهر كيميائية طبيعية أهمها « الأسموز » ومن أظهر المواد الذائبة في البحار كلورور الصوديوم والمخلوق المائي يعيش في حالة توازن كيميائي طبيعي مع الوسط المحيط به . ولقوة الأسموز اليد الطولى في هذا التوازن . فاذا نقلنا سمكة من أسماك الماء العذب الى البحر اختل هذا التوازن . وعجزت السمكة عن مقاومة هذا الاختلال طويلا ثم ماتت . وكذا العكس .

على أنه هناك غير قليل من الأسماك دخلت من البحر الى البحيرات الساحلية . وتعودت مياهها أقل ملوحة من مياه البحر . بل قد تصل في عذوبتها الى مايدبها من مياه الأنهار . بل هناك أسماك تتحمل الحياة في الماء العذب والبحر على السواء . على أن تلك الأسماك البحرية التي تعودت الحياة في الماء العذب أو الأجاج تدفعها فطرتها الى العودة الى البحر لتفرخ . وإذا امتنع عليها الوصول الى البحر أصابها العقم . وتلك حالة تعاين السمك (الانقليس) والبورى والطوبار من أسماكنا المصرية .

ويعرف سكان المنزلة والبرلس وأدكو تلك الظاهرة حق المعرفة . إذ تخرج آلاف البورى والطوبار الى البحر في مواسم معينة يطلقون عليها « الخرجات »

وقد اكتشف الأستاذ (يوهانس شميدت) اكتشافا يعد من أغرب ما وصل اليه التكشف العلمي في البحار . وهو أن تعابين السمك التي تعيش في الانهار والبحيرات الاوربية تخرج الى عرض الاقيانوس الاطلنطيقي لتفرخ قرب جزر (الانتيل) عند منطقة تسمى بحر سارجاس .

وتهاجر ثعابين السمك الامريكية شرقا لتلتقي بثعابين السمك الاوروبية في منطقة بحر سارجاس .

فاذا انتهى موسم الافراخ اتجهت أفراخ الثعابين الاوربية شرقا وأفراخ الثعابين الامريكية غربا حتى يصل كل منها الى قارته . فيدخل الانهار في شكل أسماك مستديرة زجاجية بيضاء اللون . وهي ما تسمى بالحنكليس . وتعرف مصر هذه الظاهرة . أي خروج ثعابينا الى البحر وعودة آلاف الحنكليس الى البحيرات الشاطئية ودخولها نهر النيل .

وتلك ظواهر نراها ورأى العين في مصر . ولو أننا لانزال في شك مما إذا كانت الثعابين المصرية تفرخ وسط الاطلانطيق أو

فى البحر الابيض المتوسط .

لقد أوردنا تلك الامثلة لنبين الى أى حد وصلت مرونة تلك الاسماك فى تقبلها تغير قوة الاسموز .

كما يهم الباحث معرفة الاكسجين الذائب فى مياه ما . لانه يتوقف عليه تنفس الاسماك . ألا أن احتياج نوع من السمك الى كمية من الاكسجين لايوازى احتياج نوع آخر . فقد يموت نوع اذا هبط مقدار الاكسجين الذائب الى ٤ جرامات فى اللتر مثلا . بينما يقاوم نوع آخر حتى يبلغ الاكسجين جزام ونصف فى اللتر . ثم تبدو عليه علامات الضيق . حتى يموت .

ولكل هذا أثره فى مواطن الأسماك . أسماك لاتعيش الا فى مجارى المياه الجبلية حيث المياه جارية تذيب فى ثدفقها كمية كبيرة من الأكسجين . وأفضل مثل على هذا سمك (الترونا) المعروف فى البلاد ذات المجارى السريعة الجبلية كسويسره والمكتلندا وكندا الخ .. وأسماك تعيش فى الأودية كسمك الكارب والتانش فى أوربا وجميع أسماك مياهنا العذبة .

كذلك يهم الباحث معرفة درجة حرارة المياه وحركاتها كالتيارات والمد والجزر لأن لكل واحدة من هذه المسائل أهميتها فى دراسة الأسماك . فهذا النوع يفرخ أذا تصل حرارة المياه التى يعيش فيها الى درجة معينة . وذاك النوع يخشى المياه الهادئة كى يفرخ فى مأمن من التيار الخ ..

وقد سبق الكلام عن أهمية دراسة القاع لمعرفة الأنواع التى تعشاه ، ودراسة القاع تدخل ضمن علم الصخور وهو فرع من الجيولوجيا .

ودراسة غذاء الأسماك يطرق بنا الى دراسات بيولوجية أخرى . فعلينا أن نعرف نوع الغذاء . فمن أسماك تتغذى على أسماك أصغر منها . أو حيوانات صدفية أو ذوات الفشور أو ديدان . الى أسماك لا تتغذى الا بالنباتات المائيه .

وعلى أخصائى الأسماك أن يتعرف جميع الأنواع التى تكون ذلك الغذاء ، وحياة هذه الأنواع . ومما لاشك فيه أن لنوع الغذاء أثرا واضحا فى شكل الأسماك . فتلك الأنواع التى تحتاج فى غذائها الى المطاردة السريعة يتخذ جسمها الشكل المغزلى . وهو أوفق الأشكال للحركة السريعة . كما نرى فى التونة والبلاميطة . وتلك الأنواع التى تجد غذاءها على القاع يتطور شكلها تبعاً لحياتها الهادئة . فهى مفرطحة كما نرى ذلك فى سمك موسى وأشباهه .

ولا يستطيع خبير المصائد أن يقرر صلاحية بحيرة أو بركة لتربية نوع خاص من السمك قبل أن يقرر نوع الغذاء الذى يقتات منه . بل وأفضل تغذية تعجل فى نموه وتكسب لحمه صفات شهيه .

وغنى عن هذا المقال أن نمر سراعا على شتى المسائل التى تثيرها بحوث مصائد الأسماك . وهى متعددة الوجوه لايستطيع فرد واحد أن يضطلع بها . بل هى فى حاجة الى فرقة من اخصائيين ذوى ثقافة علمية قويمه تشمل علوما مختلفة منها التاريخ الطبيعى بأنواعه ، وعلم الحيوان والنبات والجيولوجيا ، وعلوم الكيمياء والطبيعة . وعلم الأرصاد الجوية ومبادىء الأحصاء .

على أننا لم نأت على آخر ما يتعين على أخصائى بحوث المصائد أن يعرفه . أذ أن هذه العلوم تتبع فى تطبيقها العملى الظروف الخاصة بكل أقليم .

ولنضرب مثالا لذلك نظام الرى فى مصر . من رى الحياض وما اليه من بيارات وقنوات . ورى الدلتا بترعه ومصارفه واتصاله بالبحيرات الشاطئية . وأثر الخزانات والقناطر . تلك مظاهر مائية تكاد تكون خاصة ببلادنا . وهى لهذا تفتح أمام خبير المصائد فتحا جديداً فى التطبيق العلمى . أذ من العبث أن يطبق الأنسان بلا تبصر طرائق بلاد على بلاد أخرى . وأنما عليه أن يجد لكل حالة مايلائمها معتمدا على دراسة منية . وتجربة متعددة الوجوه . وهم للظواهر الخاصة بالبلاد ؟

هرمن ودروتيه

للشاعر الألمانى الكبير

جوته

أخرجت لجنة التأليف والترجمة والنشر هذا الكتاب . وهو من أحسن ماألفه شاعر ألمانيا الأكبر . وقد نقله عن الالمانية الدكتور محمد عوض محمد . وكتب المقدمة الاستاذ الدكتور طه حسين . ويطلب الكتاب من المكاتب المعروفة ومن ادارة اللجنة بشارع الساحة رقم ٣٩ وثمن النسخة خمسة قروش

زوروا مطبعة فاروق

٢٨ شارع المدابغ مصر

القصص

مشاهـــــدات غريبة

للأستاذ محمد احمد الغمراوى

أستاذ الكيمياء بكلية الطب

١

فى منجـــــم

كانت ليلة السبت ١٨ فبراير سنة ١٩٢٨ موعد انعقاد الجمعية الطبيعية الكيميائية فى الكلية ، وكان المقرر أن يذهب أعضاؤها لزيارة منجم فحم على بعد ميلين أو ثلاثة من نوتنجهام . فبعد أن تناولنا الشاى بالكلية خرجنا ومعنا الرئيس الاستاذ بارتن (١) فركبنا الترام الى المنجم ، وهناك وجدنا بعض رجاله ينتظروننا ، فقيل لنا انه لا بد من أن يحمل كل منا مصباحا يستضيء به ، وقادونا الى غرفة المصابيح أو بالأحرى مخزنها ، وقد ذكرنى حين دخلته بمخزن القناديل فى مسجد البلد أيام كان المسجد يضاء بالقناديل ، فقد كانت رائحة الزيت المحترق تفوح من المصابيح الموقدة المصفوفة . وكان كل مصباح عبارة عن قنيلة داخل اسطوانة قصيرة من الزجاج متصلة من أعلاها بمخروط ناقص من شبك الحديد ، يظاهره مثله من صفائح النحاس ، وهذا ينتهى بحلقة يحمل منها المصباح تلتقى عندها أسلاك تتصل بالقاعدة وتصون زجاجتها . هذا هو مصباح (دافى) اخترعه السير (همفرى دافى) لأول مرة سنة ١٨١٥ وهو على بساطته جم النفع ، لأن شبكته الحديدية تحول بين اللهب : لهب المصباح — أو لهب ما قد يدخله من غازات ربما تصاعدت من شقوق يصيبها العامل فى اقتطاعه الفحم — وبين أن يمتد إلى ما قد يخالط هواء المنجم من غاز قابل للالتهاب . فيحترق دفعة واحدة فينسف ما حوله . وتلك خاصة من خواص ما شابه الحديد والنحاس من المعادن أنها لسهولة سريان الحرارة فيها إذا لامست غازا ملتهبا أخذت من حرارته ما يكفى لتخفيض درجتها عن درجة الالتهاب . فاذا تسرب الغاز منها إلى خارجها تفذ غير ملتهب

حمل كل منا مصباحا وذهبنا لننزل المنجم فانا المنزل اليه فوهتان كأنهما بئران متجاورتان منصوب عليهما قوائم متشابكة من الحديد عظيم حجمها وارتفاعها . تحمل فى أعلاها جهازا يتدلى منه سلسلة متينة . تحمل فى طرفيها صندوقين كل صندوق فى فوهة . والسلسلة من الطول بحيث اذا حاذى أحد الصندوقين وجه الأرض ، حاذى الآخر أرض المنجم على عمق خمس وسبعين وماتتى ياردة . هذا هو الرافع الذى يرفع به الفحم الى سطح الأرض ولكنه لا كالذى نعرف عن الرافع ، فانه على سماجته التى لا تليق بما جعل له ، عجيب فى نظامه وحركته . وهو يتحرك بالكهرباء يدير العامل مفتاحا فى إحدى تلك القوائم ، فيدق جرس صغير ثلاث دقات فى باطن الأرض وفى ظهرها ايذانا ، وعندئذ يهوى أحد الصندوقين ويرتفع الآخر بسرعة ثلاثين ميلا فى الساعة . وكل منهما فى يده هبوطه يدع سلسلة كان قد رفعها تقل حاجزا من من خشب فيسد باب الفوهة . فاذا ما قارب الصندوق مقره فى صعوده رفع السلسلة فانفتح الباب

بدأنا النزول منتصف الساعة السابعة ، فدخل منا عشرة صندوقا فوسعهم مع العامل واقفين متلاصقين . واذا فى أرض الصندوق فضيان حديدان اذا بلغ الصندوق ارض المنجم كونا جزءا من السكة الحديدية الممتدة فيه ، وعليها توقف عربات الفحم وترفع بما فيها الى سطح الارض . والهابط الى المنجم يشعر بالعلك شعرت بعضه اذا كنت هبطت راكبا بعض مصاعد الحوانيت التجارية أو المبانى الكبرى . يخيل اليه أن الرافع قد هوى من تحت قدميه . ويقوى هذا الشعور عنده كلما زادت سرعة الهبوط حتى اذا بدأت تتناقص فى النصف الآخر من المسافة وأحس حمل أرض الرافع لقدميه أكثر من قبل خيل اليه أنه صاعد وليس بصاعد . وفى صعوده يشعر بعكس ما شعر فى هبوطه . فلما تكامل عددنا داخل المنجم ذهبنا الى غرفة الملابس فخلع بعضنا فيها ردائه . ثم سرنا فى طرق

---

(١) رحمه الله مثلا للخلق الكريم والعلم الواسع والنصائح المجدية . بدأ حياته بكلية نوتنجهام صبيا من صبيان معاملها يخدمها وينظم فيها واتنهى بأن صار استاذ الطبيعة فيها وقد انتخب زميلا بالجمعية الملكية

فيها بعض سعة سقوفها أقية مبنية ، ونورها مصابيح كهربائية . وزيارة الجهاز الكهربائي الضخم الذي يجر عربات الفحم من مسافة لا تقل عن ميل . ولا تظن العربات تتحرك كما يتحرك الترام ؛ ولكن بحبل غليظ مشدود بها اذا دار الجهاز دارت اسطوانة كبيرة بسرعة كبيرة فالتف عليها الحبل فانجرت العربات . ثم ذهبنا فرأينا مرابط الخيل التي تجر العربات فيها وراء الميل ، فاذا هي ليست أسعد حالا من خيول جر الانقال في مصر . وهي شر منها في أنها قائمة دائمة تحت الارض لا ترى الشمس بعد نزولها المنجم حتى تموت

ثم سرنا بعد ذلك ميلين في طرق ضيق حتى لا تكاد تتسع لشخصين يسيران جنباً لجنب ، كانت مزقبل عروق الفحم في الأرض فتقبها العامل بصبره ومعوله ، نائما على بطنه ومستلقيا على ظهره ومائلا على جنبه ومنحنيا وقائما . وكلما نقب خطوات الى الارتفاع المرسوم جاء بالأخشاب الغليظة فجعلها سقفا يحمل طبقات الفحم أو الطين حتى لا تنهال : تحمله من جانبيه قوائم من مثله أقيمت عمودية على جانبي الطريق . ولم يخل سيرنا في تلك الطرقات من تعب ، فكثيرا ما كنا نسير فيها منحنين نحس السقف بأعيننا والأرض بأرجلنا : ولكنا كنا نتخذ من ذلك كله فكاهات نضحك لها . فمن كان يرانا عند ذاك يرى أشباحا يحمل كل منها مصباحا . ولم يخل منظر المصابيح يتلو بعضها بعضا من بهجة في تلك الظلمة ؛ ثم كان يسمع أصواتا تتجاوب ، فلا يكاد القائد يقول — وكثيرا كان يقول : — رأسك والخشبة ! حتى يرفع بها صوته من خلفه ولا يزال الدفع يلقى بها الى فم كلما مر بالخشبة شخص حتى يبلغ آخر الصف . وقد تسمع بين ذلك هـذا يصيح : واذماغاه ! وذاك : واركبتاه ! أو تسمع سائلا يسأل وآخر يجيب . وأحيانا اذا استقام الطريق كانت ترتفع أصوات بعض الغناء بعضه معا . فنجد له عندئذ ما يجد الجندي الذي أتعبه السير الموسيقى . وكنا نظن أننا ذاهبون لنرى القاطعات الكهربائية التي تقطع الفحم : فاذا بالقائد يقودنا كل تلك المسافة ليرينا الفحم أين هو ! فلما سألناه عن القاطعات قال هي في جهة أخرى لا نصل اليها من موقفنا ذلك الا عند منتصف الليل . فرجعنا أدراجنا نقول : متى يبلغ ؟ ولم نبلغه إلا بعد الثامنة . فكتب كل منا اسمه في دفتر الزائرين ثم صعدنا فزرنا المولد الكهربائي الذي يدير تلك الآلات كلها : فاذا آلات بخار فيها الفكر في غرفة عرضها عشرون خطوة وطولها خمس وعشرون ، ويكفي لتقدير عظم آلاتها أن التيار يتولد عن قوة محركة كهربائية قدرها ٢٥٠٠ فولت . ولعل نزلاء القاهرة لا تزيد القوة المحركة لتياره على خمسمائة .

المبـــارزة

للكاتب الروسي اسكندر بوشكين

كنا نعسكر في قرية روسية صغيرة ، وأنت تدرك بالطبع حياة الضباط وما تكون عليه ، تؤدي في الصباح التمرينات العسكرية وتتدرب على ركوب الخيل ، ثم تتناول طعام الغداء عند قائد الفرقة أو في المطعم اليهودي ، فاذا جاء الليل أخذنا نشرب الخمر ونلعب الورق ، ولم يكن لنا غير هذا الجانب الضئيل من التسلية ، لأن الفتيات الناضجات لم يكن يسمح لهن بالخروج . وكنا نمق الوقت معا حتى اذا اجتمعنا لم نجد بيننا فرداً لا يرتدي اللابس الرسمية .

ثم تعرفنا الى شخص من غير الجنود ، ومع أنه كان في الخامسة والثلاثين تقريبا كنا نعتبره أكبر من هذا بكثير ، وكنا نعتقد في حكمته وكثرة تجاربه ، ولقد أسرنا نحن الشبان بكرمه وقوة شخصيته وما فطر عليه من التهكم وعدم الاكتراث . وخيل الينا أن وراء هذا كله شيئا يكتمه ، وأن بين ضلوعه سراً يطويه . ولقد نبئنا أنه كان في فرقة الفرسان يشهد له الجميع بالتفوق والنشاط ، ثم استقال منها لجاة لسبب مجهول ، واستكف في هذه القرية الصغيرة ؛ ومع قلة معاشه كنا نراه ينفق عن سعة ويفتح بيته لنا نحن الضباط ، فاذا جلسنا الى مائدته استطعنا أن نأكل ثلاثة أصناف من الطعام ، وأن نشرب الكثير من كؤوس الشمبانيا ؛ ولم نكن نعرف شيئا من شؤونه الخاصة ، غير أن الذي يعد له طعامه هو خادمه العجوز الذي كان في مطلع حياته جنديا ؛ ولم يجسر أحد على سؤاله عن حياته أو ماضيه .

وكانت له مكتبة حافلة بالكتب — معظمها خاص بالجندية وما

والعامل في منجم الفحم يتقاضى أجرا كبيرا لما في عمله من الخطر والمشقة . وهو يحاسب على كل طن يقتطعه ، وقد يقتطع ما يؤجر عليه سبعة جنيهات في الأسبوع . وقد وجدنا أن المنجم مقسم الى مناطق صغيرة كل منطقة لها رمز من عدد أو حرف تعرف به ويعرف به العامل فيها . وكلما ملأ عامل عربة كتب رمزه على كل قطعة ظاهرة من فحمها ليعرف أنها له فتضاف الى حسابه . والمنجم الذي زرناه كان يستخرج منه في اليوم في ذلك الحين مائة وألف طن من الفحم لقلة العمال . وقبل الحرب كان يستخرج منه حوالي خمسة آلاف طن في اليوم .

محمد احمد الغمراوي

يتصل بها — يمرها مسروراً ولا يسأل عنها بعد ذلك ، كما أنه اذا استعار كتابا لم يفكر فى رده الى صاحبه .. فاذا دخلت غرفته وحدث حضورها مصادفة بظروف الرصاص فيكسبها ذلك شكل عش الزنبور : ولم يكن فى داره من معالم الترف غير مجموعة ثمينة من البنادق والاسلحة .

وهو يرتدى فى الغالب سترة رثة . فاذا نظرت الى ملامح وجهه وحدته روحيا فى الصميم ، مع انه يحمل اسما أجنبيا . ولقد كان ماهراً فى الرماية الى حد أنه يصوب بندقيته الى حوذة الواحد منا فيصيبها دون أن ينال صاحبها ضرر .. وكثيراً ما تحدثنا عن المبارزة ، ولكن « سليفيو » — ولنسمه بهذا الاسم — لم يكن يشترك معنا فى الحديث ، فاذا ما سأله أحدنا عما إذا كان قد تبارز فى حياته ، رد بالايجاب ولم يزد ، وخيل الينا أنه يكره هذا الموضوع لانه يثير ذكرى حادثة معينة قتل فيها فرد معين من ضحاياه العديدين .

وفى ذات يوم كان يتناول طعام الغداء فى منزل « سليفيو » ثمانية أو تسعة من الضباط ، وكنت أحدهم ، واذكر أننا شربنا وأسرفنا فى الشراب ، فلما انتهينا من طعامنا رجونا من مضيفنا أن يكون أمين الصندوق فى لعب الميسر ، ولكنه رفض ، لانه قلما يلعب ، فلما أصررنا طلب لنا الورق وجلسنا الى جانبه على شكل دائرة أخذنا نلعب .

لم يتحدث الرجل أثناء اللعب ولم يجره الى المعارضة أو الشرح ، وكان إذا أخطأ أحدنا أعطاه ماله أو حجز ما عليه لنفسه . وكنا جميعا نعرف طريقته .. وحدث أثناء اللعب أن ضاعف أحدنا — وكان ضابطا حديث العهد بمعسكرنا — رهانه على ورقة بالذات دون قصد منه لانشغاله وذهوله ، فما كان من سليفيو إلا أن تناول قطعة الطباشير وكتب المبلغ المطلوب فقط .. عارض الضابط وأراد أن يصحح خطأه ، ولكن سليفيو لم يعره اهتمامه ، وظل يدير اللعب كأن لم يحدث شيء .. وهنا تناول الضابط الطلاسة وعدا الارقام ، فأجاب مضيفنا على ذلك بأن أعاد كتابتها فى هدوئه المعهود . كان الضابط متأثراً بالشراب وباللعب وبضحكات زملائه الساخرة فظن أنه أهين ، وتناول شمعدانا رمى به وجه سليفيو ولكنه انحنى قليلا الى الامام فأخطأته الضربة . فنهضنا جميعا وانتظرنا ماذا يكون بعدها .

وقف مضيفنا شاحبا ، وسدد الى الضابط نظرات دونها نظرات النسور وقال له « لتغادر المكان يا سيدى ولتشكر الله على أنه لم يحدث كان فى بيتى »

ولم نشك لحظة فى نتيجة هذا الحادث وما سوف يسفر عنه من قتل زميلنا الحديد ، ونظرنا جميعا اليه وهو يغادر المنزل فى وجوم معلنا استعداده لمقابلة سليفيو فى الوقت الذى يراه . وطبيعى ألا يستمر اللعب بعد ذلك كثيراً لاننا انصرفنا واحدا بعد واحد لما رأيناه على مضيفنا من علائم الذهول والانفعال . ولم نكد نعود الى معسكرنا حتى أخذنا نتحدث فيما سيؤول اليه هذا الحادث الفريد

وفى صبيحة اليوم التالى عندما كنا نقوم بتمريننا العادى على ركوب الخيل تساءلنا هل مات الضابط أم لا يزال على قيد الحياة ؟ ولكنه ظهر بيننا . فعجبنا للأمر وأمطرناه وابلا من الاسئلة ، فأجابنا أنه لم يتلق دعوة ما الى المبارزة من سليفيو . وأسرعنا الى زيارة الرجل فى منزله فوجدناه يتدرب على اطلاق الرصاص وقد ألصق بالباب غرضا جعل يصوب الطلقات اليه تباعا فلا يخطئه . فلما رآنا تلقانا كعادته . ولم يذكر لنا شيئا عن حادث الليلة الماضية .. ومرت ثلاثة أيام والضابط لا يزال على قيد الحياة ، ونحن نتساءل (ألا يتبارز سليفيو ؟) أجل أن يتبارز الرجل ! بل راح يشرح الاسباب العرجاء التى لم تقنع أحدا منا

وهذا الرفض وذلك الاحتمال من جانب الرجل أساء الى سمعته بيننا نحن الشبان ، لأن الشباب لا يغتفر الجبن ، ويعتقد أن الشجاعة خير الصفات التى يجب أن يتصف بها المرء فى جهاد الحياة ، وأن الشجاع يستبيح لنفسه كل شيء : يحلل الحرام ويحرم الحلال . ولكن سرعان ما نسينا كل شيء بعد مدة ، وسرعان ما استعاد سليفيو مكانته القديمة بيننا .

وفى الحق أن رأيى فى هذا الرجل لم يعد إلى ما كان عليه ، لأنى رومانتيكي فى خيالى وتفكيرى ، ولقد أحببت هذا الرجل أكثر من جميع ، مع أنه كان لغزاً للجميع . وكنت أتصوره دائما بطلا كبير الهمة . وكنت واثقا من أنه يعيش ، فاذا انفرد فى ترك تهكمه اللاذع وراح يتحدث معي فى شتى الموضوعات ، ولكنى بعد الحادث المعروف لم أكن أطمئن اليه ولا أرتاح إلى حديثه ، لاعتقادى أنه أهين ولم يغسل إهانته بالدم ، وكنت أتحاشى مقابلته أو النظر اليه

وكان الرجل من الذكاء ونفاذ البصيرة بحيث أدرك تماما سبب تغيري ، وخيل الى مرتين أنه يريد أن يتحدث الى فى هذا الموضوع ولكنه تجاهله ولم يصر من جانبه على الحديث

(يتبع) عبد الحميد يونس

الكتب

فتح العرب لمصر

تأليف الدكتور ألفرد . ج . بتلر

وتعريب محمد فريد أبو حديد

للأستاذ عبد الحميد العبادى

أستاذ التاريخ بكلية الآداب

سمعت أستاذنا الجليل أحمد لطفى السيد بك يقول مرة ما معناه : أنا الآن فى دور النقل والتعريب من حياتنا العلمية . وهو قول لا غبار عليه ، فان زمن الاقتصار على تراثنا العلمى والأدبى القديم قد انقضى منذ عهد بعيد ، وزمن الابتكار فى العلم والأدب لم يأت بعد ، وينبغى أن يتقدمه زمن تتوفر فيه على نقل أصول العلوم والفنون والآداب الغربية الى لغتنا العربية إقتداء بما فعل السلف الصالح فى صدر الدولة العباسية .

اننا بهذا التوفر نبث فى حياتنا العلمية روحا جديدا ، ونكسبها مادة جديدة وأسلوبا فى البحث والعرض العلمى جديدا ، ونكون قد مهدنا للحياة العلمية المستقلة . وأعددنا لها أساسا قويا راسخا لا يخشى عليه من تطاول البنيان ومرور الزمان ، ونكون قد أدينا واجب العلم والوطن والانسانية جميعا .

لكن الترجمة الصحيحة عبء ثقيل محض يقتضى كثيرا من الجهد والتضحية . فهى من ناحية المترجم تتطلب غزارة علم وأدب ، وانكارا شديدا للذات ، يستعذب معه المترجم أن يكون أسيرا للمؤلف الذى ينقله . وقليل من الناس من يصبر على مثل هذا العناء . ثم هى تقتضى من ناحية الناشر ، وخاصة فى بلدنا هذا ، أن يوطن نفسه على الخسارة المادية نصيبه مما ينشر . فاذا استطاع أن يخرج من الامر كفافا لا له ولا عليه فحسبه ذلك .

والناشر بعد تاجر يقيس قيمة الكتب بالفائدة المادية المرجوة منها ، فاذا يحمله على أن يعرض ماله للضياع ؟

من أجل ذلك كسدت سوق الترجمة فى بلدنا . وتأثرت حياتنا الأدبية بهذا الكساد تأثرا شديدا . حتى أصحت لا شرقية ولا غربية . ولا قديمة ولا حديثة . ولكن الحمد لله . فقد أخذت هذه الحال تؤذن بالتحول والزوال . وآية ذلك ما سمعه عن التفكير فى وضع قاموس عربى جديد يجمع شتات اللغة التى أصحت الى حد بعيد سماعية غير مدونة . ومن آياته أيضا ما ترجم فى السنوات الأخيرة من غرر أدب الغرب وعلمه . نذكر من هذه الغرر على سبيل المثال : كتاب الجمهورية لأفلاطون . وكتاب الأخلاق . وكتاب الكون والفساد . ونظام الأثينيين لأرسطو . وآلام فرتر لجوته . وفاوست له أيضا . والشاهنامة للفردوسى . وأصل الأنواع لداروين . ثم كتاب فتح العرب لمصر . وهو الذى سقنا هذه المقدمة تمهيدا لتعريف به أصلا وترجمة .

ألف كتاب (فتح العرب لمصر) منذ ثلاثين سنة بحاثة انجليزى هو الدكتور الفرد . ج . بتلر . ونقله الى العربية منذ عام صديقنا الاستاذ محمد فريد أبو حديد . ثم نشرته فى هذه الايام لجنتنا المباركة لجنة التأليف والترجمة والنشر . والكتاب يقع فى قرابة ستمائة صفحة مكبورة على ثلاثين فصلا وبضعة ملحقات . فى الفصول الاربعة الاولى يعرض المؤلف الحال السياسة العامة للدولة الرومانية فى أوائل القرن السابع الميلادى ويتكلم عن الثورة التى انتهت بأن أصبح هرقل عاهل الدولة المذكورة . وفى الفصل الخامس والسادس والسابع والثامن والتاسع يتكلم عن غزو الفرس الشام ومصر . فنهضة هرقل واسترداده الاقليمين المذكورين وعقده مع الفرس صلحا أعاد الى الروم شرفهم العسكرى . فاخذ الادبية للاسكندرية خاصة لذلك العهد . وفى الفصل العاشر والحادى عشر والثانى عشر والثالث عشر يتكلم عن ظهور الاسلام . وفتح العرب الشام ومصر . واضطهاد قيرس البطريك الملكانى للاقباط فى السنوات العشر السابقة على الفتح . ومن الفصل الرابع عشر إلى الثالث والعشرين يفصل المؤلف الكلام عن حوادث الفتح العربى لمصر . فيتكلم عن زحف عمرو بن العاص على مصر وبلوغه مدينة مصر . فغزوة الفيوم . فواقعة عين شمس . فحصار حصن بابليون

وأخذه . فالزحف على الاسكندرية والاستيلاء عليها . فأخذ المدن الساحلية الشمالية . فاسها السيادة الرومانية على مصر . ومن الفصل الرابع والعشرين الى الثلاثين يتكلم المؤلف كلاما تتماً موضوعه حال الاسكندرية وقت الفتح . ومكتبتها المشهورة . وحريق هذه المكتبة المنسوب الى عمرو . وغزو عمرو لبرقة وطرابلس . والنظام الادارى الاسلامى الذى وضع لمصر عقب الفتح . ثم يتبع المؤلف هذه الفصول بملحقات حقق فيها . بصفة خاصة . شخصية المقوقس . والترتيب الزمنى لحوادث الفتح العربى . والكتاب الى جانب ذلك كله مزود بخرائط ورسوم تعين على فهم موضوعه .

من هذا العرض العام يتبين القارىء أن المؤلف قد أحاط بموضوع الفتح العربى لمصر أتم الإحاطة ، واستوعب وقائعه كل الاستيعاب . والحق أن الدكتور بتلر قد جلا موضوعا من أوعر موضوعات التاريخ الاسلامى ، وحل كثيرا من الغازه : أوضح شخصية المقوقس وكانت غامضة . ورتب حوادث الفتح ترتيبا أدنى الى الصحة منه فى أى مصدر قديم ، وأتى بالقول الفصل فى حريق مكتبة الاسكندرية . وبين وجه الخلاف القديم فى فتح مصر ، أصلحا كان أم عنوة ؟ على أن الكتاب يؤخذ بنقص جوهرى واحد . ذلك أن المؤلف عنى بالجانب السياسى والدينى فقط من حال مصر قبل الفتح وأغفل شئونها الإدارية والاقتصادية على ما كان لها من أثر قوى فى سهولة انتقال مصر من حكم الروم الى حكم العرب . ولقد ظهر فى هذا الموضوع فى العشرين سنة الاخيرة بحوث قيمة كنا نود لو أن الكتاب طبع طبعة ثانية تضمن نتائجها من هذه البحوث : «النظام العسكرى لمصر البيزنطية» لجان ماسبرو . و«الادارة المدنية لمصر البيزنطية» لجوميز وبارد .

ثم اننا لا نوافق المؤلف على تصويره لغارة عمرو على الفيوم ، فهو يرى أن عمرا عند ما بلغ رأس الدلتا ورأى قلة من معه من الجند ، وحرج موقفه بين جنود الروم جنوبا وشمالا ، أرسل الى الخليفة عمر بن الخطاب يستمده ، ورأى فى الوقت نفسه أن يشغل جنده ويستنقذهم من الخطر ريثما يصل المدد ، فتكلف عبور النيل الى شاطئه الغربى ، وأغار على الفيوم ثم عاد فعبر النيل ثانية ، فوجد المدد قد قدم من المدينة . لا شك أن هذه طريقة غريبة جدا فى الخلاص من المواقف العسكرية الحرجة . ثم هى لا تأتلف بحال مع ما عرف عن عمرو من شدة الدهاء وبعد المكيدة . يضاف الى ذلك أن المصادر العربية من حيث هذه الغزوة نوعان : نوع لا يعرفها بالمرة . ونوع يعرفها ، ولكنه يوردها على صورة تجعلها أقرب الى المعقول من الصورة المذكورة : ومع ذلك لم يعتمد عليها المؤلف واكتفى بمتابعة يوحنا النيوسى بحجة أنه أقدم عهدا من كل المصادر العربية . ولكن القدم وحده لا يكون دائما دليلا على صحة المصادر التاريخية . كذلك يؤخذ على المؤلف حكمه فى الفصل الحادى عشر بأن غزوة تبوك المشهورة كانت فشلا ، لأنها لم تؤد الى ما كان الرسول يرمى اليه بها من مصادمة الروم . والحق أنها أدت الى ما كان النبى ﷺ يرمى اليه من شد سلطانه السياسى على شمال الحجاز . فيت ملاحظة يسيرة : اقد توهم المؤلف ان مسيلمة المتنبى ظهر باليمن (ص ١٣١) والصحيح انه ظهر باليمامة .

ومع ذلك فهذه الملاحظات لا تنقص من قيمة الكتاب العلمية ، وحسب القارىء أن يعلم أن الدكتور بتلر قد أقام فى كتابه ، تاريخ الفتح العربى لمصر على أساس على متين ، وانه الى الآن لم يظهر فى ذلك الموضوع كتاب آخر يدانيه . فضلا عن أن يفوقه

* *

أما الترجمة العربية لكتاب فتح العرب لمصر فأحب قبل كل شىء أن أهنىء صديقى فريدا على توفيقه فيها أخلص التهنئة . فقد جاءت صورة صادقة للاصل مطابقة له فقرة فقرة وجملة جملة . هذا مع سهولة العبارة وسلاستها ووضوحها . مما يشهد للاستاذ فريد بالبراعة فى صناعة الترجمة . ولكن ليت شعرى اى مترجم . ولو كان الاستاذ فريد نفسه . يترجم زهاء الستمائة صفحة ثم لا يهفو قلمه ولا ينحرف عن الاصل الذى ينقل عنه يمنة او يسرة ؟ على هذا الاعتبار أهدى الى الاستاذ فريد هذه الملاحظات اليسيرة .

جاء فى صفحة ٢٥ هذه العبارة (النفر اليسير) وصوابها (الزمر) بالزاى المعجمة . وفى صفحة ٢٧ عرب اسم المستشرق المشهور De goeje ب (دى جويجة) وصوابه (ده غويه) ووردت فى صفحة ٢٧ أيضا كلمة (المونوفيسية) وأحسن منها ان يقال (المذهب اليعقوبى) . وجاء فى صفحة ١٢٣ (هزيمة تبوك) بدلا من (فشل غزوة تبوك) وهو المقابل للاصل . وفى صفحة ٨٣ ترجمت Theology (بالفقه) وصوابها (اللاهوت) ، وجاء فى صفحة ٢١٨ (تسور الزبير الى الحصن) والصواب ان يحذف حرف الجر . وفى صفحة ٢٢٨ ترجمت Drawbridges ب (قناطر) وأصح من ذلك (جسور) لان العرف جرى بأطلاق اللفظ الاول على البناء الثابت الذى يعقد فوق الانهار وهو غير المراد من اللفظ الانجليزى . وجاء فى صفحة ٢٥٥ (وكانت سلحة المدينة) بدلا من (وكانت خامية المدينة) . وفى صفحة ٤٠٦ (وقال عنه النواوى) وصوابه (النووى) بدون ألف الحد .

على ان هذه الملاحظات ايضا لا تضر الترجمة شيئا . واذا كان الكتاب مثالا يحتذى من حيث دقة البحث العلمى ، فترجمته العربية مثال ينسج على منواله من حيث أمانة النقل وصحة التعريب ؟

ضحى الاسلام

ما كان لى أن أقف مع الذين يتحدثون عن الأستاذ المحقق ، أحمد أمين ، ولا أن أساهم فى الكلام عن علمه ومؤلفاته ، لان ذلك شأن لا يضطلع به إلا كبار أهل العلم والفضل ليكون لكلامهم من القيمة ما يكافئ مكانة هذا العالم الكبير . ولكنى وأنا أطلب العلم والأدب وأدرسهما منذ ربع قرن (وما زلت مجداً فى سبيلى) أجد لزاماً على وقد قرأت كتابه الممتع ، ضحى الاسلام ، أن أبين فى كلمة صغيرة لأخوانى طلاب الأدب والعلم ومن يعنون بدراستهما مقدار ما أحدث من هذا الكتاب ومدى انتفاعى به .

أخذت هذا الكتاب يوم صدوره أخذ المشوق اللهفان ، لأنى كنت أرتقب صدوره بعد أن بزغ (فجره) من زمن غير قليل ، ولم ألبث أن عكفت على قراءته عكوفاً لم أدع معه النفس أن تتطلع إلى شىء غيره من متاع الحياة حتى انتهيت منه .

وفى الحق أنى لا أستطيع أن أصف وصفاً دقيقاً مقدار ما استمتعت به من هذا الكتاب ، ولا أن أصور تصويراً صادقاً مبلغ ما فيه من علم وبحث ، ولكنى لو أردت أن أصف أمرى بعد أن فرغت من قراءته فى عبارة صغيرة لقلت : « انى على كثير ما قرأت من كتب العلم والأدب لم أفد من كتاب مثل ما أفدت من هذا الكتاب » . فقد كشف عن الحياة العقلية الاسلامية فى القرن الثانى الهجرة بما لم يكن معروفاً مثله لأحد ، فظهرت أشياء لم تكن تعرف من قبل ، ووضحت أمور كانت غامضة أو مبهمة ، وصححت مسائل كان الناس يعلمون فيها غير الذى حققه بحوثه العميقة عالمنا الجليل .

ولقد شهدت فى هذا الكتاب الممتع كيف سارت حياة الاسلام فى الحقبة التى أرخت فيه ، وتنورت على هدى تحقيقه ما أثر فى هذه الحياة من مختلف النواحى وما تأثرت به هذه النواحى . حتى لكنت أحسب وأنا أدرس هذا الكتاب أن الحياة العقلية الاسلامية قد صورت تصويرا صادقاً على لوحة النسيم بحيث لا يخفى منها شىء ، ولا يحتجب منها وجه .

وإنى لأقرر فى صراحة أنى بعد أن قرأت كتابى (فجر الاسلام وضحاه) قد تغير رأيى فى كثير من أمور ديننا الحنيف كنت فهمتها من بعض كتب العلم ، وأصبحت بذلك مضطراً إلى أن أعود إلى هذه الكتب لأقرأها ثانية حتى أفهم مافيها على حقيقته .

هذا بعض ما أخذته من كتاب « ضحى الاسلام » بقدر (فريحتى وفهمى) أنشره وأؤذن بصوت الحق أن هذا الكتاب الفريد تجب دراسته على الأديب والعالم والدينى والمؤرخ وجوباً

جزى الله عالمنا الجليل لقاء ماناله من تعب وتحقيق فى سبيل العلم خير الجزاء ، وأعانه على اتمام ما انتدب له من خدمة العلم انه سميع الدعاء .

المنصورة — محمود أبو ريه

الهيام

لعبد الرحيم مصطفى قليلات

هذا الكتاب ديوان شعر ، وعنوانه (الهيام) قد يخدع القارىء لأول وهلة ، فيحسب أن الديوان أكثره أو كله غزل . والحقيقة أن العنوان مقتبس من الآية (ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون) وقد هام هذا الشاعر فى أودية كثيرة . والكتاب الذى بين أيدينا هو ثمرة هذا (الهيام) . وأشعار الكتاب مقسمة الى خمسة أبواب : الأول : فى الدين والاخلاق : الثانى : فى الثقافة والاجتماع : الثالث : فى تهذيب المرأة وحبها : والرابع : فى الفكاهة : والخامس : وهو أطول الابواب جميعا . فى الاناشيد . ومنه يتبين للقارىء أن المؤلف لم يدع هيأة من الهيئات فى بلده الا علها كيف تنهى بأعمالها وشئونها ، وكثير من هذه الأناشيد يصحبه توقيعه مكتوبا بالعلامات الموسيقية . وسيسر المصريون اذ يرون هذا الشاعر السورى الفاضل قد ختم الكتاب بنشيد جميل (دمعة على سعد) ومعه لحنه ، ولم يتح لنا بعد أن نسمع توقيعه .

وقد أعجبنا الكتاب كله تلك الروح الدينية والوطنية والخلقية العالية التى يحسها القارىء فى كل صفحة من صفحاته . وقد عالج المؤلف عدة مواضيع من الاهمية مكان . ولكن يخيل الينا أن الشاعر يكتب بسرعة وكثرة هائلة لا تسمح له بتنقيح شعره واختيار عباراته وألفاظه وليس من شك فى أنه لو تأنى وتريث لأتى بشعر جليل . وهو أحسن ما يكون حين يقص علينا قصة . وسيسر القارىء من القسم الفكاهى . وقد أعجبنا منه بنوع خاص قطعته البديعة (ليلة القدر) . ومن أجل هذه القطعة وحدها يستحق الكتاب أن يقتنى ؟

م . ع . م .